إصطفاء (آل عمران)

في ضوء القرآن الكريم

د. روضة بنت محمد بن أحمد بن ياسين

الأستاذ المساعد بقسم الكتاب والسنة

كلية الدعوة وأصول الدين

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين، وبعد:

فإن هذه الدراسة (اصطفاء آل عمران في ضوء القرآن الكريم) لتهدف إلى كشف ذلك الشرف الكبير، وتلك الحكم التي أهّلت هذه الأسرة الكريمة لتكون ضمن المصطفِين من عند الله تعالى، وليتصدّر اسمها قائمة سور القرآن الكريم، وقد قسَّمت الباحثة هذا البحث الى مقدمة وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، فالمبحث الأول في: (الاصطفاء وآل عمران) ويتضمن المختصين بالاصطفاء في سورة آل عمران، والمصطفِين على العالمين، ومن بين الأنبياء، أما المبحث الثاني فكان في: (آل عمران وشرف الاصطفاء)، ويتضمن: اصطفاء امرأة عمران، وزكريا عليه السلام وزوجه، واصطفاء مريم وابنها عليهما السلام، وقد استخدمت الباحثة في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي، والمنهج التحليلي، وانتهتْ بنتائج عدة أهمها: أن الاصطفاء مرتبة لا ينالها أحد إلاّ مَن اصطفاه الله تعالى، وأن شرف هذه الأسرة الكريمة يتجلى فيما كانت عليه من الدين الذي اصطفاه الله تعالى، ولِمَا ظهر فيها من سلالة النبوة والصلاح التي توالدت بعضها من بعض، وأن الاستشعار بعظمة وقدرة الله تعالى على خرق العادة من موجبات استجابة الدعاء.

الكلمات (المفتاحية) الدالة عن البحث:

- المنذورة الأنثى.
- البشارة الكبرى.
- الاستعظام في الانجاب.

* * *

المقدمة

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾[1].

والصلاة والسَّلام على سيد الخلق وإمام الرسل سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى أثره.

وبعد:

فإنّ علم التّفسير من أشرف العلوم، حيث إنّ موضوعه: كلام الله تعالى، والقارئ المتدبر يدرك أنّ أهل العلم ذهبوا مذاهب عدة لكشف معانيه وإدراك بعض حقائقه، فمنهم من اعتمد في تفسيره على ما أثر عن النبي ﷺ والصّحابة وكبار تابعيهم، ومنهم من لجأ إلى الفهم والاجتهاد والقول بالرأي، ممّا نجم عنه ألوانُ عدة من التفاسير كالتفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، مما تفرع عنه بما يعرف اليوم بالتفسير الإجمالي والتفسير التّحليلي والتّفسير الموضوعي[2].

ومما وجهني الله تعالى إليه من خلال قراءتي للقرآن الكريم، ذكر مسمى تلك السورة (آل عمران) **فجالت في خاطري العديد من التساؤلات:**

لِمَ كانت هذه الأسرة هي الأسرة الوحيدة الَّتي اختصها الله بالذكر في أسماء السّور؟ وما هو الشّرف الكبير الَّذي أهّل هذه الأسرة ليتصدر اسمها في قائمة سور القرآن الكريم؟.

(١) سورة الكهف آية: ١ – ٢.

(٢) انظر: مناهل العرفان للزرقاني ١/ ٤٧٠، واتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر لفهد الرومي ٣/٨٦٢.

هذا ممّا دفعني أنْ أفرد بحثي هذا للكشف عن بعض أسباب اصطفاء تلك الأسرة، وما خصها الله تعالى به من شرف.

وقد جعلت دراستي مقتصرة على الآيات الواردة في سورة (آل عمران)، والَّتي تخص هذه الأسرة الكريمة، **وبخاصة أنّني لم أجد من خلال قراءاتي وتصفحي من أفرد تلك الأسرة بالحديث، أو التحدث عن شرفها ومكانتها في موضوع مستقل، وسياق متناغم كما ورد في هذه السورة**، لأجل ذلك مضيت مستعينة بالله تعالى ثمّ عقدت العزم على الكتابة في هذا الموضوع وجعلت عنوانه (**اصطفاء آل عمران في ضوء القرآن الكريم**).

ثم انتهيت إلى تقسيم هذه الدّراسة إلى مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة.

فأمّا المقدّمة: فتشمل أهمية الموضوع وأسباب اختياره وخطة البحث، ومنهج البحث، وطريقة السير فيه:

فأمّا التمهيد: فهو يشمل الحديث عن معنى الاصطفاء. وكيف يكون؟ ومرات ورود لفظه في القرآن الكريم، وذكر من هم المصطفين الوارد ذكرهم في القرآن؟.

وأمّا المبحث الأول فهو في: الاصطفاء (وآل عمران) ويتضمن ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المختصون بالاصطفاء في سورة (آل عمران).

المطلب الثّاني: الاصطفاء على العالمين.

المطلب الثّالث: الاصطفاء والنبوة.

أما المبحث الثاني فهو في (آل عمران) وشرف الاصطفاء ويتضمن ثلاثة مطالب:

المطلب الأوّل: اصطفاء امرأة عمران.

المطلب الثّاني: اصطفاء زكريا عليه السَّلام وزوجه.

المطلب الثّالث: اصطفاء مريم وابنها عيسى عليهما السَّلام.

الخاتمة:

وضمّنتها ملخصاً لماّ توصلت إليه من نتائج هذا البحث، وأتبعت ذلك ببعض التّوصيات، ثمّ ذيلت البحث بفهرسين.

- فهرس المراجع.
- فهرس الموضوعات.

وقد كان منهجي في البحث:

أولاً: المنهج الاستقرائي: واستخدمته في تتبع شرح الآيات القرآنية، وجمع بعض أقوال المفسرين، والوقوف على سيرة وترجمة بعض الأعلام.

ثانياً: المنهج التّحليلي: واستخدمته في الوقوف على أوجه خلاف بعض المفسرين وعرض أو أقوالهم وحججهم للترجيح بينها أو الجمع إن أمكن، وتوجيه بعض القراءات.

أما خطوات منهجي في البحث فكان كما يلي:

١. اقتصرت غالباً على ذكر القول الراجح من أقوال المفسرين إلاّ ما يلزمني من التّفصيل لتوضيح وتقريب المعنى المراد.
٢. لم أتعرض لتحليل الآيات اللّغوية والبيانيّة والبلاغيّة واللطائف إلاّ ما ندر واقتضاه البحث.

٣. اقتصرت على ذكر المعنى الإجمالي للآيات، للوصـــول إلى تحقيـــق الهدف من البحث.
٤. اقتصرت على ذكر بعض القراءات الراجحة وتوجيهها.
٥. اعتنيت بترجمة الأعلام الوارد ذكرهم في البحث.
٦. تجنبت اختلافات المفسرين إلاّ ما اقتضته ضرورة البيان.
٧. اعتنيت بالمناسبة بين كل آية وسابقتها.
٨. اقتصرت في ذكر الأحاديث على ما صحّ وثبت.
١٠. ذكرت كلمة (انظر) في الهامش لما أخذ بتصرف.
١١. ذكرت اسم الكتاب في الهامش بدون كلمة (انظر) لمـــا أخـــذ بالنص.

أسأل الله تعالى أن يكون لي عوناً ونصيراً وصلّى الله على ســـيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

التمهيد:

ويشمل:

- **معنى الاصطفاء.**
- **كيف يكون الاصطفاء؟**
- **مرات ورود لفظ الاصطفاء في القرآن الكريم.**
- **من هم المصطفون في القرآن؟.**

* أولاً: معنى (الاصطفاء):

معنى الاصطفاء: الاختيار، يقال: اصطفيته، أي اخترتـــه، وصـــفوة الشّيْء: خالصه، كما أنّ الاختيار: تناول خيره [١].

والاصطفاء: تناول صَفْوِ الشّيء[٢]

وفيه ثلاث لغات: صَفْوة، صِفْوة، وصُفوة، وهم من لا دنس فيهم من جهة الدّين والخيريّة[٣].

وذكر الجرجاني في التّعريفات:

الصّفوة: هم المتصفون بالصفاء عن كـــدر الغيريّـــة [٤]، ويكـــون اصطفاء الله لخلقه باختياره لهم، وجعلهم صفوة خلقه، قال الزجاج:

(وهذا تمثيل بما يرى، لأن العرب تمثل المعلوم بالشيء المرئي، فنحن نعين الشّيء الصّافي إنّه النّقي من الكدر فكذلك صفوة الله من خلقه)[٥].

كيف يكون الاصطفاء؟

يكون اصطفاء الله تعالى لخلقه بأحد أمرين[٦]:

---

(١) الصحاح، فصل الصاد، مادة (صفا) والمصباح المنير كتاب الصاد، باب الصاد مع الفاء وما يثلثهما١/٣٦٦، وبصائر ذوي التميز ٢/١٧٨.

(٢) المفردات في غريب القرآن، كتاب الصاد: ٢٨٣مادة (صفو)

(٣) انظر معاني القرآن للزجاج ١/٣٩٩.

(٤) التعريفات للجرجاني / ١٣٤.

(٥) معاني القرآن للزجاج ١/٩٣٣. والزجاج هو: إبراهيم بن السرى بن سهل أبو إســحاق الزجاج، ولد ومات في بغداد عالم بالنحو واللغة، سمي بذلك لأنه كان يخرط الزجاج في شبابه (انظر: إنباه الرواه ١/١٥٩، وتاريخ بغداد ٦/٨٩).

(٦) انظر: المفردات في غريب القرآن:٢٨٣ كتاب الصاد مادة (صفو).

١ — إمّا بإيجاده تعالى لخلقه صافياً من الشّــوب الموجــود في غــيره، كاصطفاء الملائكة.

٢ — أو يكون باختيار وبحكمة، كاصطفاء الرسل.

* ثانياً: مرات وروود لفظ الاصطفاء في القرآن:

قد ورد لفظ (الاصطفاء) في القرآن الكريم (١٥) خمسَ عشرةَ مرةً، وذلك بألفاظ ومقامات مختلفة [١] وهي كما وردت في المصحف الشريف على النحو التالي:

١ - فقال تعالى في حقّ إبراهيم عليه السَّــلام: ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [٢] أي: أخترناه واجتبيناه للدين ليكون نصيره في الدنيا [٣].

٢ - ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [٤].

والمراد: أن الله اختار لكم هذا الدّين الّذي عهده إليكم واجتبــاه لكم[٥].

٣ - وقال تعالى في شأن طــالوت: ﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ لَهُمُ... ﴾ [٦].

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٤٠٩ باب الصاد مادة (اصطفى)

(٢) سورة البقرة آية: ١٣٠.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير ٤٣٧/١، وتفسير ابن أبي حاتم ٢٣٨/١.

(٤) سورة البقرة آية: ١٣٢.

(٥) انظر: تفسير ابن جرير ٤٣٨/١، وتفسير أبي حاتم ٢٣٩/١.

(٦) سورة البقرة آية: ٢٤٧.

والمعنى: أي اختاره عليكم [١].

٤ - وقال تعالى في ذرية آدم عليه السَّلام: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ﴾ [٢] .

والمعنى: إن الله اختار آدم ونوحاً و آل إبراهيم وآل عمران لدينهم الذي كانوا عليه [٣].

٥ - وقال جل شأنه في مريم عليها السَّلام: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ ﴾ [٤].

والمعنى: أن الله أختارك لطاعته[٥].

٦ - وقال في شأنها أيضا عليها السَّلام: ﴿ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [٦].

أي: أختارك على نساء العالمين فَفُضِّلْتَ بطاعتك[٧].

٧ - وقال تعالى في شأن موسى عليه السَّلام: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ﴾ [٨].

والمعنى: إنّي أخترتك على الناس برسالاتي الّتي أرسلتك بها إليهم[٩].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٢/٣٨٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٢/٤٦٥.

(٢) سورة آل عمران آية: ٣٣.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير ٣/١٥٦، وتفسير ابن أبي حاتم ٢/٦٣٤.

(٤) سورة آل عمران آية: ٤٢.

(٥) تفسير ابن جرير ٣/١٨٠، ومعالم التنزيل ١/٤٦٣.

(٦) سورة آل عمران آية /٤٢.

(٧) انظر: تفسير ابن جرير ٣/١٨٠، ومعالم التنزيل ١/٤٦٣.

(٨) سورة الأعراف آية / ١٤٤.

(٩) انظر: تفسير ابن جرير ٩/٣٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٥/١٥٦٢.

٨ - وقال عزّ شأنه منكراً على المشركين اعتقـــادهم: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾[(١)].

والمراد: هل أختاركم ربّكم فخصّكم بالذكور من الأولاد، واتّخذ لنفسه من الملائكة إناثاً وأنتم لا ترضونهم لأنفسكم ؟ إنّ هـــذا خـــلاف الحكمة وما يقتضيه العقل[(٢)].

٩ - وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾[(٣)].

والمعنى: إن الله تعالى يختار من الملائكة رسلاً كجبريل وميكائيـــل وإسرافيل وغيرهم ممّن كان يرسلهم على أنبيائه[(٤)].

١٠ - وقال جلّ وعلا آمراً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بعد أن قص عليه هلاك الأمم السابقة المكذبة: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾[(٥)].

والمعنى: قل يا محمد الحمد لله على هلاك كفار الأمم السّـــابقة، أو على جميع نعمه، والسَّلام على من أختارهم الله واجتباهم من عباده عرفانا بفضلهم، وهم الأنبياء والرسل، وقيل: هم أصحاب الرّسول صـــلّى الله عليه وسلّم، وقيل: هم أمّته عليه الصّلاة والسَّلام، وقيل: كل المؤمنين من السّابقين واللاحقين، والأوّل هو الَّذي عليه الأكثر من المفسرين[(٦)].

---

(١) سورة الإسراء آية /٤٠

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ١٥/ ٦٤، ومعالم التزيل ٤٩٧/٣

(٣) سورة الحج آية: ٧٥.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير ١٤٢/١٧، ومعالم التنـــزيل ١٣٣/٤.

(٥) سورة النمل آية: ٥٩.

(٦) انظر: تفسير ابن جرير ٣/٢٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٩٠٦/٩، ومعالم التنـــزيل ٣١٣/٤.

١١ - وقـــال جـــلّ ذكـــره: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (١).

والمراد: أن الله تعالى أعطى الكتب السابقة، وقيل: شهادة أنْ لا إله إلّا الله، وقيل: القرآن الكريم. لمن أختار من عباده. وهم: أمّة محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: جميع المؤمنين من كل أمة، وقيل: المصطفون مـــن الأنبياء، وقيل: علماء الأمّة من الصّحابة ومن بعدهم،والراجح لدى أكثر المفسرين: هم أمّة محمّدٍ ﷺ ورّثهم الله كل كتاب أنزل من عنده تعالى(٢).

١٢ - وقال جلّ جلاله مُقرِّعاً وموبخاً مشركي قـــريش: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ (٣).

والمعنى: ويحكم، كيف تحكمون أنّ الله اختار له البنات وأختار لكم البنين،فتجعلون له ما لا ترضونه لأنفسكم ؟ (٤).

١٣ - وقال تعالى ممجداً أنبيائه كإبراهيم وإسحاق يعقـــوب﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ (٥).

أي إنّ هؤلاء الَّذين ذكرنا اخترناهم لطاعتنا ورسالتنا إلى خلقنا(٦).

١٤- وقل جلّ شأنه موبخاً المشركين فيما ادّعـــوه: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن

---

(١) سورة فاطر آية / ٣٢.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ٨٨/٢٢، وتفسير ابن أبي حاتم ٣١٨١/١٠، والجـــامع لأحكـــام القرآن ٣٤٧/١٤، وأنوار التنـــزيل :٥٧٨.

(٣) سورة الصافات آية / ١٥٣-١٥٤.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير ٦٨/٢٣، والجامع لأحكام القرآن ١٣٤/١٥.

(٥) سورة ص آية / ٤٨.

(٦) انظر: تفسير ابن جرير ١١١/٢٣، والجامع لأحكام القرآن ٢١٧/١٥.

يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾[1].

والمراد: لو شاء الله أن يتخذ ولداً ـــ ولا ينبغي له ذلك ـــ لاختار من خلقه ما يشاء [2].

١٥ – وقال أيضاً في تـــوبيخ المشــــركين: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾[3].

والمعنى: هل اتخذ ربّكم أيّها الجاهلون ممّا يخلقُ بناتٍ،وأنتم لا ترضـــونه لأنفسكم، واختار لكم البنين ؟ – وهو المقدّس عن ذلك كله – [4].

والمتأمل في جميع الآيات السّابقة يجد أنّ لفظ الاصطفاء ورد بمعنى: الاختيار وخالص الشّيء وخيره.

وبذلك نجد الارتباط – الواضح بين المعنى اللغوي للاصطفاء وبين ما ورد في القرآن لهذا المفهوم، حيث خصّ الله تعالى هذه المادّة (صـــفو) لوصف كل ما هو مختار وخالص من الكدر.

* ثالثاً: المصطفون في القرآن الكريم:

والمتأمّل في القرآن الكريم والمتدبر في آيات الاصـــطفاء – الســـابق ذكرها – والّتي أتت بمعنى (الاختيار وأخذ ما صفا من الشيء) يستنتج أنّ هناك عشرة[5] من الخلق خصّهم الله تعالى بلفظ (الاصطفاء) دون غيرهم.

---

(١) سورة الزمر آية / ٤٨.
(٢) انظر: تفسير ابن جرير ١٢٣/٢٣، ومعالم التنـــزيل ٤/٥.
(٣) سورة الزخرف آية / ١٦.
(٤) انظر: تفسير ابن جرير ٣٤/٢٥، ومعالم التنـــزيل ٩٤/٥ والجامع لأحكام القرآن، ٧٠١٦.
(٥) ذكرهم الفيروز آبادي ثمانية، بإسقاط آل إبراهيم وآل عمران، رغم أن آية ســـورة آل عمران تنص نصّاً صريحاً على هذا الاصطفاء، انظر: الصائر ذوي التمييز ١٧٧/٢.

وهم حسب ترتيب ذكرهم في القرآن:

١- إبراهيم عليه السَّلام.

٢- آدم عليه السَّلام.

٣- نوح عليه السَّلام.

٤- آل إبراهيم [١].

٥- آل عمران [٢].

٦- مريم عليها السَّلام.

٧- موسى عليه السَّلام.

٨- جملة من الملائكة كجبريل وميكائيل وإسرافيل.

٩- الأنبياء والرسل.

١٠- أمّة محمد صلّى الله عليه وسلم، ومنهم خيارهم كصحابته رضوان الله تعالى عليهم

ولمّا كان هذا البحث يخص بالذكر - **اصطفاء آل عمران** - فسوف نبسط القول عن اصطفائهم في المباحث القادمة - إن شاء الله -.

❊ ❊ ❊

(١) سيأتي الحديث عنهم مفصلاً.

(٢) سيأتي الحديث عنهم مفصلاً.

المبحث الأول

الاصطفاء و (آل عمران)

ويتضمن ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المختصون بالاصطفاء في سورة (آل عمران).

المطلب الثاني: الاصطفاء على العالمين.

المطلب الثالث: الاصطفاء والنبوة.

المطلب الأول

المختصون بالاصطفاء في سورة (آل عمران)

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[١].

والمتأمّل في هذه الآيات يدرك أنّ الله تعالى خصّ باصطفائه عـــدداً من خلقه نُجملُ الحديث عنهم في اللطائف التّالية وهم:

* اللطيفة الأولى: آدم عليه السَّلام:

فآدم عليه السَّلام هو أوّل الخليقة[٢]، والأب الأوّل للبشر [٣] حيث ارتقى إلى هذه المرتبة بعد ما تنقل في مرتبة التوبة والإنابة فاصـــطفاه الله تعالى واجتباه، قال عزَّ من قائـــل: ﴿ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴾[٤]. فكان هادياً مهدياً، ثم كان في ذريته جميع المرسلين والنبيين ممَّن شـــاء الله

(١) سورة آل عمران آية / ٣٣ – ٣٤.

(٢) وقيل سمي بذلك لكون جسده من واجهة الأرض، وقيل لسمرة في لونه، وقيل: لأنه خلق من عناصر مختلفة وقوى متفرقة، وقيل: سمي بذلك لما طيب به من روح الله المنفوخة فيه، وقد وردت في هذا أحاديث كثيرة.
انظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني كتاب الألـــف:١٤ مـــادة (آدم)، وكتاب العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني ١٥٤٤/٥، وإعراب القرآن للنحاس ٣٦٨/١.

(٣) اقتباس من قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة (... فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر..) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنـــه، انظـــر: صحيح مسلم كتاب الإيمان باب الشفاعة ٦٧/٣.

(٤) سورة طه آية / ١٢٢.

تعالى اصطفاءه [1]. وقد ورد ذكره عليه السَّلام في القرآن (خمساً وعشرين) مرّةً [2].

*** اللطيفة الثانية: نوح عليه السَّلام:**

وأما نوح عليه السلام فهو نوح بن لامك بن متوشلخ، جدّه الأكبر أخنوخ وهو (إدريس) عليه السلام، ينتهي نسبه إلى (شيث بن آدم) عليه السلام[3]، وهو من أُولي العزم من الرُّسل، ويعدّ الأبَ الثّاني للبشرية[4] حيث انقرضت في عهده السلائل البشريّة بسبب ذلك الطّوفان، فانقرض منها من انقرض ونجا منها من نجا،، قال عز من قائل: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ﴾ [5].

ثمّ كان أيضا في ذريته الكثير من المرسلين والأنبياء ممّن شاء الله تعالى اصطفاءهم، وقد ورد ذكره عليه السَّلام في القرآن في (ثلاثٍ وأربعين) [6] مرةً في مواطن مختلفة، وقد سمّيت باسمه سورة (نوح).

*** اللطيفة الثالثة: اصطفاءآل إبراهيم.**

فالآل في الّلغة: يطلق على الأهل و الأولاد والأتباع[7].

---

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير: ٩.

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن باب الهمزة: ٢٤ مادة (آدم).

(٣) انظر: تفسير الخازن ٣٢٩/١

(٤)انظر: فتح القدير ١/ ٣٣٣.

(٥) سورة هود آية / ٤٠.

(٦) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن باب النون: ٧٢٢ مادة (نوح).

(٧) انظر:الصحاح باب اللام، فصل الألف ١٦٢٧/٤ مادة (أول) والمصباح المنير كتاب الألف، باب الألف مع الواو وما يثلثهما ٣٤/١ مادة (آل).

وأضاف الراغب الأصبهاني[١]:

بأن لفظ (الآل) خُصّ بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات، ودون الأزمنة والأمكنة والمواضع، بل لا يضاف إلاَّ إلى الأشرف والأفضل، فيقال مثلاً: آل الله وآل النبي[٢] وآل السّلطان، ولا يقال: آل الرجل، أو آل زمن القحط، أو آل مكة وغيره.

وقد حصر الفيروز آبادي [٣] لفظ (الآل) في القرآن **في ثلاثة أوجه:**

الأوّل: بمعنى القوم والتّبع لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴾[٤].

الثّاني: بمعنى أهل البيت والحاضرين من أهل القوت والنفقة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ [٥].

الثالث: بمعنى القرابة والذرية، لقوله تعالى: ﴿ وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٦]. وقوله: ﴿ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾[٧].

وعلى هذا أرى - والله أعلم - بأنّ المعنى الجامع لتلك الأوجه

---

(١) هو: الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصبهاني (بالباء أو بالفاء) الملقب بالراغب من أكبر حكماء وعلماء أهل أصبهان و سكن بغداد، مختلف في تاريخ وفاته. (انظر: سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٢٠).

(٢) وآل النبي ﷺ هم: أقاربه، وقيل هم: المختصون بالعلم المتقن والعمل المحكم. (انظر: بصائر ذوي التمييز ٢/١٦٢).

(٣) هو محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروز آبادي أبو طاهر، من أئمة اللغة والأدب والتفسير، سكن(زبيد) وتولى قضاءها وتوفي سنة (٨١٧هـ) انظر: بغية الوعاة ١/٢٧٣.

(٤) سورة القمر آية / ٤١.

(٥) سورة القمر آية / ٣٤.

(٦) سورة آل عمران آية / ٣٣.

(٧) سورة مريم آية / ٦.

الثّلاث هو ما يطلق على: أهل الشّخص المختصين به اختصاصا ذاتياً، إما بقرابة أو بموالاة، كأهل بيته وأتباعه[1]. ومن هم على دينه [2].

- وأمّا عن خليل الرّحمن (إبراهيم) فهو: إبراهيم بن تارح بن ناحور، بن ساروغ، وينتهي نسبه إلى سام بن نوح عليه السَّلام [3].

وعلى هذا يكون المراد من (آل إبراهيم) كما ذكره الزمخشري[4] هم:

إسماعيل وإسحاق ويعقوب، ذلك أنّ إبراهيم عليه السَّلام جعله الله أصلاً لشعبتين: فجعل (إسماعيل بن إبراهيم) أصلاً للعرب، فيكون بذلك النّبيُ محمّداً صلى الله عليه وسلّم مشمولاً في هذا الاصطفاء، وجعل (إسحاق) عليه السَّلام أصلاً لبني إسرائيل وجعل فيهم النّبوة والملك [5].

* اللطيفة الرابعة: اصطفاء آل عمران:

إن لفظ(عمران) المذكور في الآية قد ورد ذكره (ثلاث) [6]مرات في القرآن، مرةً بإضافته إلى (آله)، لقوله في آية الاصطفاء: ﴿وَءَالَ عِمْرَنَ﴾[7]، وأخرى بإضافته إلى زوجه قال تعالى:

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، كتاب الألف مادة (آل).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ١٥٦/٣.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام ٢/١

(٤) هو: أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري. برع في الأدب والنحو واللغة، وكان داعياً للاعتزال. مات سنة (٥٣٨) انظر: طبقات المفسرين للسيوطي: ١٢٠.

(٥) انظر: الكشاف ٣٢٩/١.

(٦) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، باب العين: ٤٨٣ مادة (عمر).

(٧) سورة آل عمران آية / ٣٣.

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ ﴾[١]. وثالثة بإضافته إلى ابنته في قوله: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ﴾[٢].

وقد اختلف المفسّرون في نسبه:

فرُوي عن الحسن ووهب بن منبه[٣] أنّه: عمران بن ماثان، أو بن أشيم أو أشهم بن عمون أو أمون، ينتهي نسبه إلى سليمان بن داود عليهما السَّلام،وهو والد مريم عليهما السَّلام، وقيل: عن قتادة: إنّه عمران بن يصهر، أو بن نصير، بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق، وهو والد موسى وهارون.

وعلى هذا فقد اختلف المفسرون أيضاً في المراد (آل عمران)[٤] فيكون المراد على القول الأوّل: هي مريم وابنها عيسى عليه السلام، و زكريا ويحيى وغيرهم ممن تبع توحيد الله من سلالة سليمان بن داود. وأمّا على الرأي الثاني: فيكون المراد بـ (آل عمران) هم موسى وهارون وغيرهم من سلالة يعقوب عليهم السَّلام.

---

(١) سورة آل عمران آية / ٣٥.

(٢) سورة التحريم آية / ١٢.

(٣) الحسن هو: أبو سعيد الحسن بن يسار البصري التابعي الفقيه الزاهد، إمام أهل البصرة ولد بالمدينة وسكن البصرة، توفي سنة ١١٠ هـ، (انظر: تذكرة الحفاظ ٧١/١).
وأما وهب: فهو وهب بن منبه الأبناوي الصنعاني، أبو عبد الله مؤرخ كثير الإخبار عن أهل الكتاب، من التابعين ولد ومات بصنعاء عام ١١٤ هـ (انظر: سير أعلام النبلاء ٥٤٤/٤، وشذرات الذهب ١٥٠/١).

(٤) انظر: تفسير ابن جرير ١٥٧/٣، ومعالم التنزيل ٤٥٣/١، وتفسير ابن أبي حاتم ٦٣٥/٢، والتفسير الكبير ٢٢/٨.

والراجح والَّذي ذهب إليه الكثير من المفسرين هو الرأي الأوّل للدلالات التالية:

١. إنّ الله تعالى بسط القول في قصة مريم وعيسى عليهما السَّلام في السورة (آل عمران) و لم يرد ذكر لموسى و هارون عليهما السَّلام فيها.

٢.ذكر تعالى في السّورة قصّة كفالة زكريا لمريم عليها السلام، وإنّ ذكر زكريا بن آذن، وعمران بن ماثان كانا في عصرٍ واحد، بينما كانت الفترة الزمنية بين عمران بن يصهر (أبو موسى وهارون) وبين عمران بن ماثان(أبو مريم) حوالي (١٨٠٠) ألف وثمان مئة سنة[١].

٣. إنّ الله تعالى بعد أن ذكر اصطفاء (آل عمران) أعقبه بذكر ﴿ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ﴾ في قوله: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ﴾ وحيث إنّ عمران بن ماثان هو أب مريم وجد لعيسى عليهما السَّلام، فكان صرف الكلام لهما من باب الأولويّة [٢].

والمتأمّل في هذه الدّلالات يدرك أنّ جميع من ذكر يمثلون أهل عمران وقرابته وأتباعه، وبما أنهم على دينه و مذهبه. إذاً فهم (آله).

قال قتادة[٣]: (ذكر الله أهل بيتين صالحين، ورجلين صالحين

---

(١) انظر: المراجع السابقة

(٢) انظر: إعراب القرآن للنحاس ٣٦٨/١، ومعالم التنزيل ٤٥٣/١، والكشاف ١٨٥/١

(٣) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة االسدوسي البصري: مفسر حافظ ضرير أكمه أحفظ أهل البصرة عالم بالحديث ومفردات اللغة. مات سنة (١١٨هـ)، انظر: (سير أعلام النبلاء ٢٦٩/٥).

ففضّلهم على العالمين)[١].

يعني: (آل إبراهيم وآل عمران) و (آدم ونوح) عليهما السَّلام، وعن ابن عباس قال: "هم المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران، وآل ياسين، وآل محمد ﷺ"[٢].

* * *

(١) تفسير ابن جرير ١٥٧/٣.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦٣٥/٢.

المطلب الثاني

الاصطفاء على العالمين

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [1].

المراد من الاصطفاء على العالمين:

- معنى قوله: ﴿ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

قيل: اصطفى دينهم على جميع الأديان لأنّهم كانوا مسلمين، واختاره الفراء[2].

وقيل: فضّلهم على العالمين بالنبوة على النّاس كلّهم، كانوا هم الأنبياء الأتقياء المطيعين لربهم، واختاره ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم والخازن [3] وغيرهم.

---

(١) سورة آل عمران آية / ٣٣.

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء ٣٠٧/١.

والفراء هو: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله ابن منظور الديلمي مولى بني أسد، وإمام الكوفيين في اللغة والنحو والأدب، انظر: بغية الوعاة/ ٣٣٣/٢

(٣) تفسير ابن جرير ١٥٧/٣، و تفسير القرآن العظيم ٦٣٤/٢، وتفسير الخازن ١/ ٢٢٩

وابن جرير: هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر، من كبار أئمة المفسرين، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من عصره توفي عام (٣١٠) انظر: طبقات المفسرين للداودي ١٠٦/٢.

وابن أبي حاتم هو: عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم بن إدريس الرازي أبو محمد من كبار حفاظ المفسرين والمحدثين. انظر: (تذكرة الحفاظ ٤٦/٣). وأما الخازن فهو: علي ابن محمد بن إبراهيم الشيحي علاء الدين عالم بالتفسير والحديث، من علماء الشافعية، كان خازنا لمكتبة بمدرسة في دمشق، توفي سنة (٧٤١هـ)، انظر: طبقات المفسرين للداوودي ٤٢٦/١.

وأضاف الرازي[1] بأنّ الله اصطفاهم على العالمين بتصفيتهم مـــن الصفات الذميمة، وزينهم بالخصال الحميدة، لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[2] حيث إنّ الله تعالى خصّ رسله دون غيرهم من البشر بصفات وقوىً جسمانيةٍ وروحانيةٍ لتأهيلهم.

والمتأمّل في جميع هذه الأقوال يدرك:

صحة جميع هذه المعاني، فبما أنّ الله تعالى اصطفى ديـــن هـــؤلاء الأنبياء على جميع الأديان، فبذلك يكون الله تعالى فضّلهم على العـــالمين بالنبوة لإبلاغ ذلك الدّين، وبذلك لابدَّ وأن يكون جملة هؤلاء الأنبيـــاء الَّذين اصطفاهم الله قد أصفاهم من الصفات الذميمة وزينهم بالخصـــال الحميدة لأنّهم خيرة خلق الله تعالى.

* * *

(١) انظر: التفسير الكبير ٨/٢٠

والرازي هو: محمد الحسن البكري الرازي، أبو عبد الله توفي عام ٦٠٦ هـــ الإمام المفسر، قرشي النسب أصله من طبرستان، ونسبته إلى الرى. انظر: طبقات الشـــافعية للســـبكي ٥/٣٣.

(٢) سورة الأنعام آية / ١٢٤.

المطلب الثالث

الاصطفاء والنبوة

﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١).

ومعنى الذرية:

قيل مأخوذة من (ذرأ) أي خلق(٢)، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ (٣).

أي خلقهم وأوجد أشخاصهم، وذُرِّيَّة على وزن (فِعْلِيَّة) وتطلق على صغار النّمل، ثمّ أُطلق على صغار الأولاد والكبار معاً(٤)، وقد يراد بها الواحد على نحو قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾(٥)، ويقصد به الولد الواحد، وقد يراد بها الجمع، نحو قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ (٦).

وقيل ذرأ: أي نشر وسمّيت بذلك الذريّة لأنّ الله تعالى ذرأها ونثرها على الأرض، كما يذرأ الزارع البذر (٧)، وقيل مأخوذة من الذر،

---

(١) سورة آل عمران آية / ٣٤.

(٢) انظر: معجم الصحاح فصل الألف ١/٥١ مادة (ذرأ).

(٣) سورة الأعراف آية / ١٧٩.

(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن، كتاب الذال: ١٧٨ مادة (ذرأ).

(٥) سورة آل عمران آية / ٣٨.

(٦) سورة الإسراء آية / ٣.

(٧) انظر: المفردات في غريب القرآن، كتاب (الذال): ١٧٨ مادة (ذرأ) وفتح القدير ١/١٣٨.

لأنّ الله تعالى أخرج الخلق من ظهر آدم عليه السلام حين أشهدهم على أنفسهم ونثرهم تعالى كالذر[١].

● معنى قوله: ﴿ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ ﴾:

ذكر عن قتادة:﴿ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖ ﴾أي في النيّة والعمل والإخلاص والتوحيد [٢]، فتكون بذلك كلمتهم وملتهم وطريقتهم واحدة: في توحيد الله وطاعته[٣]، وذكر البغوي أنّ المراد: بعضها من ولد بعض[٤]، وقيل: بعضها من بعض في الموالاة في الدّين والمؤازرة على الإسلام[٥]، وذكر الزمخشري: أنّ المراد: أنّ الآلَيْن أي (آل إبراهيم) و (آل عمران) هم ذريّةٌ واحدةٌ متسلسلة، بعضها مُتشعبٌ من بعض، فموسى وهارون من عمران، وعمران من يصهر، ويصهر من قاهث، وقاهث من لاوي، ولاوى من يعقوب ويعقوب من إسحاق[٦]، وأمّا عيسى فهو من مريم، ومريم من

(١) روى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (أخذ الله الميثاق من آدم عليه السَّلام فأخرج من صلبه ذرية ذرأها، فنثرهم نثراً بين يديه كالذر، ثم كلمهم، فقال: ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين). أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب الإيمان باب تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴿١٧٢﴾ ﴾ ٢٧/١، قال الحاكم:هذا حديث صحيح الإسناد، و لم يخرجاه، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبير.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦٣٥/٢.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير ١٥٧/٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٦٣٥/٢.

(٤) انظر: معالم التنزيل ٤٥٣/١.

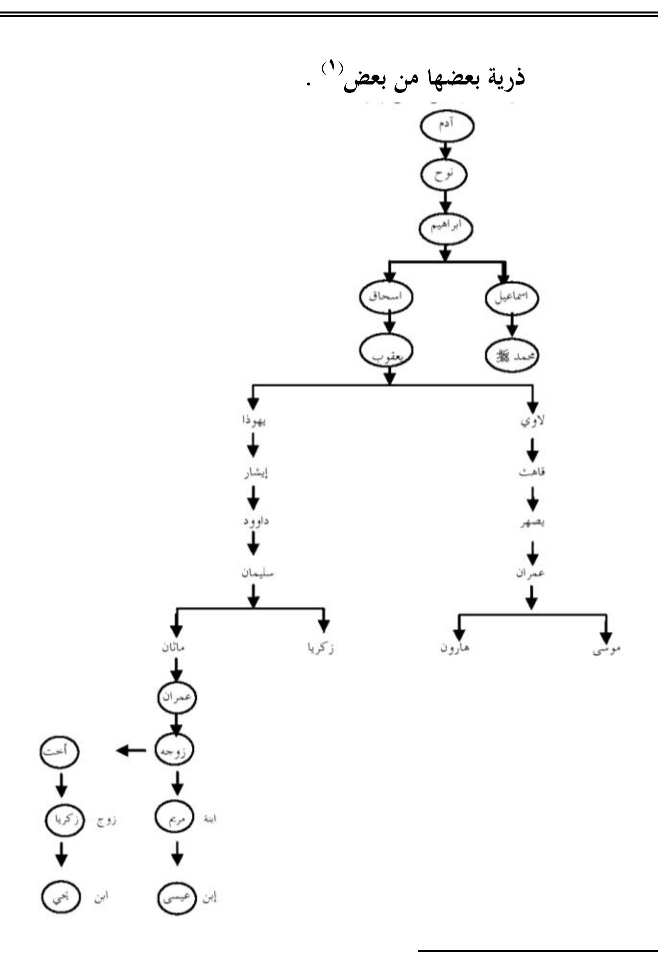
(٥) تفسير ابن جرير ١٥٧/٣.

(٦) الكشاف: ١٨٥/١.

عمران، وعمران من ماثان، وماثان من سليمان، وسليمان من داود، وداود من إيشا، وإيشا من يهوذا، ويهوذا من يعقوب، ويعقوب من إسحاق، وإسحاق من إبراهيم، وكان الرسول ﷺ من آل إبراهيم عليه السلام[1] ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميعٌ لما يقولُه الخلق، عليمٌ بما يضمرونه، أو سميعٌ لما تقوله امرأة عمران، عليمٌ بما تَقصِد[2].

(١) انظر: تفسير ابن جرير ١٥٧/٣، والبحر المحيط ٤٣٦/٢.
(٢) البحر المحيط ٢/ ٤٣٦.

ذرية بعضها من بعض[1] .



(١) ذكره ابن جرير عن ابن إسحاق ١٥٧/٣، وأبو حيان في.البحر المحيط ٤٣٤/٢، والبغوي في معالم التنزيل ٢/ ٤٥٣، والبيضاوي في أنوار التنزيل ٧١/١، والزمخشري في الكشاف ٤٣٤/٢، والألوسي في روح المعاني ٣٣/١.

وقد ورد في كثير من التفاسير أن اسم امرأة عمران (حنة بنت فاقود) وأختها تسمّى (أشيع بنت فاقود) -والله أعلم-. انظر : المراجع السابقة .

فيكون (زكريا) زوج خالة مريم عليها السَّلام وهي (أشيع)، وبذلك تكون مريم في حضانة خالتها ، وقيل: إنّ زكريا زوج (أخت) مريم عليها السلام، كما ورد فيما أخرجه الشيخان من حديث المعراج من قوله ﷺ:(فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا). أخرجه البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة انظر: فتح الباري ٣٠٢/٦، ومسلم في صحيحه في كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله وفرض الصلوات ٢١٣/٢ واللفظ له.

والمتأمّل والدّارس لهذه الشّجرة المباركة يدرك أنّ بين كـــل نـــبيٍّ وآخر،حِقْبَةٌ من الأزمنة، يتخلَّلها العديد من الآبــاء والأجــداد منـــهم (الأنبياء) وما يعيننا في هذه الدّراسة هو مَن ورد ذكر اسمه الشـــريف في (سورة آل عمران) وهم سبع شخصيات نوردها هنا – **حسب ترتيـــب ذكرها في أحداث ووقائع الآيات وهم**: امرأة عمران، وزكريا ويحـــيى عليهما السَّلام، وامرأة زكريا، ومريم وعيسى عليهما السَّلام.

* * *

المبحث الثّاني

(آل عمران) وشرف الاصطفاء

وتحته ثلاثة مطالب:

المطلب الأوّل: اصطفاء امرأة عمران.

المطلب الثّاني: اصطفاء زكريا عليه السَّلام وامرأته.

المطلب الثّالث: اصطفاء مريم وابنها عيسى عليهما السَّلام.

تمهيد

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ

ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾ ﴾[1].

فهذه (١٧) سبعَ عشْرَةَ آيةً تسرد لنا عجائب وخوارق هذه الأسرة، وتكشف لنا بعض أسرار ذلك الاصطفاء الَّذي شرفت به من بين العديد من الأسر الكريمة.

وأجد من خلال تأمّلي في تلك الآيات **أنّ هناك جوانب مهمة في حياة أسرة (عمران)، أخذت الكثير من وقفات المفسرين، ومنها:**

أولاً: أنّ الكثير من الأنبياء والرّسل والصّالحين ظهروا في هذه العائلة الشريفة (آل عمران) عبّر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

ثانياً: ما ظهر في هذه الأسرة من المعجزات والكرامات في الإنجاب، حيث بدأت بكرامة ولادة مريم عليها السَّلام من أمّها (العاقر)، ويلي ذلك معجزة ولادة (يحي) من (زكريا) عليهما السَّلام الَّذي بلغه الكبر وامرأته عاقر[2]، ثمّ معجزة ولادة (عيسى) عليه السلام من أمّه (مريم) عليها السَّلام من

(١) سورة آل عمران آية / ٣٥ – ٥١.

(٢) اقتباس من قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي ﴾ سورة آل عمران آية /٤٠، وذكر عن ابن عباس وغيره أن يحي وعيسى ابني خالة، ويحي أكبر من عيسى وهو أول من آمن به وصدق بأنّه كلّمه الله وروحه. انظر: تفسير ابن جرير ١٧٢/٣، وغرائب القرآن للنيسابوري على هامش تفسير ابن جرير ١٩٠/٣.

غير (أب).

ثالثا: توالي ظهور المعجزات والكرامات بين أفراد هذه الأسرة نحو كيفية ولادة وكفالة مريم، وكيف كانت ترزق؟ واستجابة الله تعالى لدعاء زكريا عليه السلام، وما أراه الله تعالى من آية حمل زوجه، وما بشر به تعالى من معجزات عيسى عليه السلام وغير ذلك.

* * *

المطلب الأول

اصطفاء امرأة عمران

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

ممّا شرف الله به تلك الأسرة واصطفاها لأجله ما كان من نذر (امرأة عمران) ولذا عبّر تعالى بقوله: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ ﴾ فقوله:(إِذْ) يكون له معني الاصطفاء، والتقدير:(إن الله اصطفى آل عمران إذ قالت امرأة عمران) وقيل التقدير: (اذكر يا محمد) وقيل:متعلّقٌ بما قبله (والله سميعٌ عليم)[1]. و﴿ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ ﴾ ذكر ابن جرير: هي (حنة بنت فاقود) وأن عمران وزكريا تزوجا بأختين فكانت(أم مريم) عند عمران بن ماثان و(أشيع) أختها عند زكرياعليه السلام..

وفي تأمّلنا لهذه الآية ندرك عدة لطائف منها:

*** اللطيفة الأولى: النذر وامرأة عمران:**

كانت امرأة عمران قد كبرت فأمسك عنها الولد، فبينما هي في ظل شجرة نظرت إلى طائر يطعم فرخا له فتحركت نفسها للولد، ودعت الله تعالى أنْ يهب لها ذلك، فحملت بمريم، وتوفي عمران[2]. عن

(١) انظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ٢/ ٧١.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير٣/١٥٧،ومعالم التنزيل١/٤٥٤،والكشاف١/١٨٤،والتفسير الكبير٨/٢٥،وتفسير ابن كثير١/٥٣٧.

عكرمة[١] إنّ امرأة عمران كانت عجوزاً عاقراً وكانت لا تلد فجعلت تغبط النساء لأولادهن، فقالت: إنّي نذرت شكرا لله إنْ رزقني ولداً، فأتصدق به لله على بيت المقدّس ـ وكانت هذه عادة بنى إسرائيل في التقرب لله تعالى فيكون من سدنته وخُدَّامه[٢] ولذلك أتى التّعبير بقوله: ﴿لَكَ﴾أي خالصاً لله تعالى وعبادته [٣].

- قول امرأة عمران: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

يشير إلى أن هذا النوع من النذر كان مشروعاً عند بني إسرائيل ومحصوراً على الذكور دون النساء لما يصيبهن من الحيض والأذى، فكان الرجل ينذر في ولده أن يكون خادماً في متعبده، أي من سدنته وعلى الأولاد وجوب الطاعة[٤]، قال الخازن: لم يكن أحد من أنبياء بني إسرائيل ومن علمائهم إلا ومن أولاده محررا لخدمة بيت المقدس[٥].

ويفيد أن (امرأة عمران) أرادت أن تشكر الله تعالى على نعمة الإنجاب، فنذرت لله تعالى – دون غيره – نذراً مطلقاً. بصرف النظر عن كون الجنين ذكراً كان أم أنثى – ولذا أتى التعبير بقولها: (ما) أي الَّذي في بطني من الحمل حيث إنّ ما في بطنها مبهم[٦].

---

(١) هو: عكرمة بن عبد الله البربري أبو عبد الله مولى عبد الله بن عباس، تابعي من أعلم الناس بالتفسير توفى سنة ١٠٥هـ. (انظر: تهذيب التهذيب ٧/٢٦٣).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ٣/١٥٨، والبحر المحيط ٢/٤٣٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٤/٦٧.

(٤) انظر معاني القرآن للزجاج ١/٤٠٠، والجامع لأحكام القرآن ٤/٦٦، والتفسير الكبير ٨/٢٥.

(٥) تفسير الخازن ١/٢٢٩.

(٦) انظر: تفسير ابن جرير ٣/١٥٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٢/٧٢ والدر المصون ٢/٧٢.

وقيل: أتى التّعبير هنا على سبيل الرجاء منها أن يكون ذكـــراً، أو على الفرض والتقدير. والجامع بين القولين: إنّي جعلت ما في بطني حبيسا لخدمة بيت المقدس[1] تقرّباً لله دون غيره لا ينتفع بشيء من أمور الدنيا، ولذا أتى التّعبير هنا بقولها: (لك) أي لعبادتك.

ثمَّ بَيَّنَت (حال) هذا المنذور بقولها: (مُحَرَّرًا)، قيل:مأخوذٌ من الحرية الَّتي هي ضد العبودية والرِّق[2]، وقيل مأخوذ من التبتل والانقطاع من مشاغل الدّنيا إلى التفرغ لعبادة الله[3]. **والواضح أنّ هذا هو الأرجح – والله أعلم** – لأنّ عمران وامرأته يتمتعان بالحرية، ثمّ جاء التّرجي والتّمني والدعاء بقولها: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ والتّقبل: هو أخذ الشيء على وجه الرضا به ومقابلته بالجزاء والثواب[4].

ولا يكون هذا التّعبير إلاّ ممن لا يريد بفعله إلاّ الله تعالى.

ومع هذا الرجاء فإن (امرأة عمران) دعت الله تعالى تقرباً له بأسمائه الحسنى وصفاته العليا بقولها: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي سميعٌ لتضـــرعي ودعائي وندائي، عليمٌ بما في نفسي ونيتي و بما كان وما سيكون، حيـــث إنّ الله تعالى عليم بنيتها حين ناجت ربها وهي حاملٌ بنذر ما في بطنـــها

(٨) انظر: البحر المحيط ٤٣٧/٢، وتفسير غرائب القرآن على هامش تفسـير ابـن جريـر ١٨٦/٣.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ١٥٨/٣، والتفسير الكبير ٢٥/٨، والجامع لأحكام القرآن ٦٦/٤.

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن، كتاب الحاء: ١١١ مادة (حر).

(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن: ٣٩١، كتاب القاف مادة (قبل) والتفسـير الكـبير ٢٦/٨.

لخدمة بيت المقدس[(١)].

وهذا من الواضح تعليل لاستدعاء قبول الدعاء، ورجاء الإجابة تفضلاً منه وإحساناً، وقصر صفتي (السَمْع والعِلْم) عليه تعالى لغرض اختصاص دعائها، وانقطاع حبل رجائها عما عداه سبحانه بالكلية مبالغة في الضراعة والابتهال[(٢)].

*** اللطيفة الثانية: الشعور بالحسرة وخيبة الأمل:**

قال تعالى موصفاً حال (امرأة عمران) حين ولادتها: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾.

- فقوله: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ أي فلما وضعت البنت أو الجارية أو المنذورة أو الأنثى أو النفس أو النسمة ونحو ذلك [(٣)] فأتى اعتذارها لله تعالى على نذرها المطلق بقولها:

﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ فَذَكَرَتْ ذلك لا على سبيل الإعلام وإنما على سبيل الاعتذار، مصحوباً ذلك بالشعور بالحسرة وخيبة الأمل على ما فاتها من تحقيق النّذر الّذي كانت ترجوه.

---

(١) انظر: التفسير الكبير ٨/٢٦، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٥٣٨.

(٢) روح المعاني ٣/١٣٤.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير٣/١٥٩،وتفسير ابن أبي حاتم٢/٦٣٦، وتفسير البغوي١/٤، والكشاف١/١٨٦.

● ثمّ جاءت مواساة الله تعالى (لامرأة عمران) بتعظيم تلك الأنثى ورفع قدرها وشأنها على الذكور، حيث قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾.

وردت قراءة جمهور القراء بسكون التّاء في قوله: ﴿بِمَا وَضَعَتۡ﴾. وبذلك تكون الجملة – اعتراضية – من كلام الله تعالى واقعةً بين كلام امرأة عمران، فأتى خطاب الله تعالى لها على جهة التّعظيم والتّفخيم لتلك الأنثى الَّتي وَضعت، لِمَا تَعَلَّق بها من عظائم الأمور حيث يجعلها الله تعالى وولدها آيةً للعالمين.

وقرأ ابن عامر وغيره بضم التاء (وضعتُ) فتكون من جملة كلام (امرأة عمران) مشعراً بالتسليم والخضوع لله، والتتريه له أن يخفى عليه شيء، وقرأ ابن عباس بكسر التاء في (وضعتِ) فتكون الجملة من كلام الله تعالى [1].

● **وعلى قراءة الجمهور وقراءة ابن عباس** يأتي بعد ذلك قول الله تعالى مخبراً عمّا سيكون من علو شأن هذه الأنثى فقال:

﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ﴾ فالتعبير هنا مُشْعرٌ بتفضيل تلك الأنثى على الذكر [2].

والمعنى: والله أعلم بما وضعت فليس الذكر الَّذي طلبتْ كالأنثى

(١) انظر: معاني القرآن للفراء ٢٠٧/١، ومعاني القرآن للزجاج ٤٠١/١، وإعراب القرآن للنحاس ٣٧٠/١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦٧/٤. والكشاف ١٨٦/١.

(٢) أورد ابن كثير بأن تلك الآية مشعرة بتفضيل الذكر على الأنثى والمراد: أن الذكر ليس كالأنثى في القوة والجلد والعبادة وخدمة المسجد و لم يذهب إلى هذا الرأي كثير من المفسرين. انظر: تفسير القرآن العظيم ٥٣٨/١.

الَّتي وَضَعتْ، حيث إنّ الذكرَ لا يعدو أن يكون خادماً للكنيسة، أمّا هذه الأنثى الَّتي وضعتْ فسيختصُّها الله تعالى بما لم يخصْ به أحداً من البشـــر فأمرها عظيمٌ وشأنها فخيم.

● ثم سجلت (امرأة عمران) إصرارها على تنفيذ ما نَوَتْهُ من خدمة نذرها لبيت المقدس فإنّها وإنْ كانت مولودتها أنثى و لم تكـــن جـــديرةً بسدانة ذلك المعبد، فلتكن من العابدات المتقربات إلى الله تعالى وإنْ كان بالاسم فقط، فقال تعالى على لســـان (امـــرأة عمـــران): ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾.

ومعنى (مريم) بالعبرية أي: العابدة والخادمة للرب [(١)] وأرادت بذلك التَّقرب لله والتَّضرّع إليه، والتفاؤل لها بالخير والصلاح بأنْ يكون فعلـــها مطابقاً لاسمها وأن يفضلها الله على إناث الدّنيا.

● ثم أتى تأكيدها على تصديق ظنها بعصمة الله تعـــالى لمولودتهـــا (مريم) فطلبت تباعاً أنْ يحميها الله ويُجيرَهَا وولدها من الشيطان الرجيم وإغوائه بقولها: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ وأصل العوز: الالتجاء إلى الغير و التعلق به [(٢)].

والمراد بـــ (ذريتها) هو عيسى عليه السلام، لما ورد من حـــديث الـــنبي ﷺ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: (ما من مولـــود يولـــد إلاّ نَخَسَـــهُ الشيطان، فيستهل صارخاً من نخسه إلاّ مريم وابنها)، ثم قال أبو هريـــرة:

---

(١) انظر: تفسير غرائب القرآن على هامش تفسير ابن جرير ١٨٧/٣.

(٢) المفردات في غريب القرآن كتاب العين: ٣٥٢ مادة (عوذ) والجامع لأحكـــام القـــرآن ٦٨/٤.

اقرؤوا إن شئتم ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾[1].

والمراد أنّ الشيطان المرجوم المبعد الملعون [2]، يطمع في إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه، إلّا مريم وابنها عيسى عليه السلام، فإنَّ الله عصمهما ببركة استعاذة (والدها) لهما[3] فكانا لا يصيبيان الذنوب كما يصيبها بنو آدم.

* اللطيفة الثالثة: قبول المنذورة الأنثى:

قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾[4].

ذكر ابن جرير والنيسابوري[5] أنَّ الضمير في قوله:﴿فتقبلها﴾ إمَّا أن يعود إلى (امرأة عمران) وهذا الظاهر بدليل استمرارية الخطاب عنها

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير باب (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) انظر: فتح الباري ٢١٢/٨.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦٣٨/٢.

(٣) قال قتادة: (كل مولود يطعن الشيطان في جنبه حين يولد غير عيسى وأمه جُعل بينهما حجاب فأصابت الطعنة الحجاب و لم ينفذ لهما منه شيء) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦٨/٤.

(٤) سورة آل عمران آية / ٣٧.

(٥) انظر: تفسير ابن جرير ١٨٧/٣، وتفسير غرائب القرآن على هامش تفسير ابن جرير ١٨٧/٣.

والنيسابوري هو: محمود بن أبي الحسن النيسابوري، أبو القاسم نجم الدين مفسر لغوي، انظر: بغية الوعاة: ٣٨٧.

سابقاً، وإما أن يكون مرجع الضمير إلى(مريم عليها السَّلام) **والواضح والله أعلم: أنّه هو القول الراجح** وقد ذهب **إليه كثيرٌ من المفسرين**[١]، حيث إنَّ جُمْلَةَ خطاب ما بعد الضَّمير في قوله: (فتقبلها) يشير إلى أنَّ المراد مريم عليها السَّلام، وقد جاء وصف ذلك القبول بقوله:﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ خَيْرٍ ﴾ وللمفسرين عدّة معاني في المراد من قوله:(بِقَبُولٍ حَسَنٍ) فَصَّلَ القول فيها الإمام الرازي[٢] **وذَكَرَ أربعة أوجه للقبول الحسن**:

أولاً: أنّ الله تعالى لمّا علم تضرُّعَ (امرأة عمران) قَبِلَ منها (مريم) مكانَ الذكر المنذور خدمتها للكنيسة، على الرغم من حال صغرها وعدم قدرتها على الخدمة.

ثانياً: أنَّ الله تعالى تولَّاها وتكفَّل بتربيتها والقيام بشأنها بتدبير من لدنه.

ثالثاً: أنَّ الله تعالى عصم مريم وابنها عيسى عليه السلام من مس الشيطان استجابةً لدعوة (امرأة عمران).

رابعاً: أنَّ مريم تكلّمت في صِباها كما تكلَّم المسيح و لم تلتقم ثديا قط، وإنَّ رِزْقَهَا كان يأتيها من الجنَّة، **والَّذي رجَّحَهُ الكثير من**

(١) انظر: تفسير ابن جرير ١٨٧/٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٦٣٨/٢، ومعالم التنزيل ٤٥٥/٣، والكشاف ١٨٧/١، والتفسير الكبير ٢٨/٨، والبحر المحيط ٢/ ٤٤١، والجامع لأحكام القرآن ٦٩/٤،ولباب التأويل ٢٣٠/١، أنوار التنزيل:٧٢، وتفسير ابن كثير ٥٣٩/١.

(٢) انظر: التفسير الكبير ٢٨/٨.

المفسرين، الرأي الأوّل والثّاني[١]، **ويبدو والله أعلم**: أنَّ الرأي الثّالث يندرج ضمن توليةَ الله تعالى لها، والتكفل بترتيبها والقيام بنشأتها، أمّا الرأي الرابع: فلم أجد من المفسرين من ذكر تَكَلُّمَ مريم عليها السَّلام في صِباها، كما أنَّ القول بأنَّ رزقها كان يأتيها من الجنّة فقد يكون مندرجاً ضمن حسن الكفالة والتربية.، ولذا أتى عقبها بقوله:

- ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾.

وهذا الإنبات الحسن منه ما يتعلّق بالدين فتكون الصّورة مجازية، والمراد هنا: التربية الحسنة، والاستقامة على الطاعة والعبادة، و ذكر ابن عباس: لما بلغت تسع سنين صامت النهار وقامت الليل و لم تجر عليها أي خطيئة أو ذنب[٢]، وقيل: من الإنبات ما يتعلّق بالدنيا: فإنَّ الله تعالى سَوَّى خِلقةَ مريم عليها السَّلام خلقة حَسَنَةً، من غيرِ زيادة ولا نقصان[٣].

* اللطيفة الرابعة: كفالة مريم عليها السَّلام:

- ثمَّ أعقب ذلك الإنبات الحسن بقوله:﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ .

والكفيل: من الكفالة: وفي الأصل مأخوذة من الضّمان، والكفيل: الضَامن[٤]، ثم استعير المعنى للضم والأخذ، فيقال كفل يكفُل، وكفِل يكفَل، كفالة وكفلاً، فهو كافِل وكفيل.والكافل: الَّذي ينفق على إنسان

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج ٤٠١/١ وإعراب القرآ، للنحاس ٣٧١/١.

(٢) انظر: البحر المحيط ٤٤١/٢، الجامع لأحكام القرآن ٦٩/٤.

(٣) انظر: معالم التنزيل٤٥٦/٣،والكشاف١٨٧/١،والبحر المحيط٤٤١/٢،وتفسير الخازن٢٣٠/٢.

(٤) الصحاح ٥/ ١٨١١فصل الكاف، مادة (كفل)

ويهتم بإصلاح مصالحه. [١]

من هو: زكريا:

ورد ذكره في القرآن سبع مرات[٢] في سورة (آل عمران، والأنعام، ومريم، والأنبياء) وذُكِرَتْ قصَّته مفصلةً في سورتي (آل عمران، ومريم)

وهو زكريا بن دان بن مسلم، ينتهي نسبه إلى سليمان بن داود، أبو يحيى عليه السلام من رسل بني إسرائيل، زوج خالة مريم عليها السَّلام [٣].

وفي كفالة زكريا لمريم عليها السَّلام الكثير من الكرامات وخوارق العادات الَّتي قصها علينا القرآن. وذلك ضمن قوله تعالى ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [٤].

ويذكر أن (امرأة عمران) حين وضعت مولودها يعني (مريم) بيّن لهم زكريا عليه السَّلام حينئذ أحقيته بكفالتها ليضمها إلى خالتها حيث كانت تحته، فتنازعوا في أمر كفالتها، وتخاصموا فيمن هو الأولى والأحقُّ بكفالتها؟ لأنّها كانت ابنةَ إمامهم وسيّدهم، حيث كان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وكتبة الوحي — وفي كيفية الاقتراع كثرت الروايات بين أهل التّفسير، وأشهرها: بأنّ بني إسرائيل اقترعوا بأقلامهم أيُّهم يكفل مريم، فقرعهم زكريا عليه السَّلام وبأمر من السماء، وكان القراع على أن يلقوا أقلامهم في الماء الجاري، وقيل سهامهم، فمن وقف قلمه و لم يجّره

(١) التفسير الكبير ٢٩/٨.

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٣٣١ باب الزاي مادة (زكريا).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير ١٨٧/٣، ومعالم التنزيل٤٥٦/٣، والكشاف ١٨٧/١، والبحر المحيط ٤٤١/٢، وتفسير الخازن ٤٣٠/٢.

(٤) سورة آل عمران آية /٤٤.

الماء فهو حاضنها [1]، قال ابن عباس: اقترعوا فجرت الأقلام مع الجِرية، وعال قلم زكريا الجِرية فكفلها زكريا [2].

وقال ابن حجر: فجرت أقلام الجميع مع الجرية إلى أسفل، وارتفع قلم زكريا فأخذها [3].

● والمتأمّل في هذه القصّة يدرك بأنَّ كفالة زكريا لمريم ــ عليهما السَّلام ــ ما هي إلّا أمر من الله، تعالى بحيث تكون في حضانة خالتها، وهذا ما ترتبت عليه قراءة التشديد في قوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾. والمراد أنّ الله تعالى كفّل مريم لزكريا، أي ضمّها إليه وجعله كافلاً لها بأمر من عنده. وهذا بخلاف قراءة التخفيف (وكفِلها) أي أن زكريا ضمها إليه بإرادة منه[4].

● ثم توالت كرامات تلك المولودة فقال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾.

وكلما: تدل على التكرار. أي في كل زمان دخوله عليها وجد عندها رزقاً.

والمحراب: مشتق من الحرب كأنّ ملازمه يحارب الشيطان، وقيل من

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير ١٦٤/٣. والجامع لأحكام القرآن ١٦٢/٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٦٣٩/٢، ومعالم التنزيل ٤٥٦/٣ والبحر المحيط ٤٤٢/٢، والجامع لأحكام القرآن ٧٠/٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات، انظر: فتح الباري ٢٩٢/٥.

(٣) المرجع السابق ٢٩٤/٥.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢٠٨/١، وإعراب القرآن للنحاس ٣٧٢/١، وتفسير ابن جرير ١٦٢/٣.

الحرَب وهو:النصب والتعب الَّذي يلاقيه ملازمه. ويطلق على صدر ومقدمة المجلس وهو أرفع المواضع وأشرف المجالس وقيل:أصله في المسجد ـ ثم شُبه صدر البيت به، وسمي بذلك لأنه موضع محاربة الشيطان والهوى[١]، وقيل:لا يكون محرابا إلّا أن يرتقي إليه بدرجة، أو فيما ارتفع من الأرض.

والَّذي يبدو أنَّه أقرب إلى معنى الآية: أن يكون المحراب هنا هو ما كان في المسجد، لدلالة بقية أحداث القصة عليه، كقوله تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾.

● وتستمر تلك الكرامات، بل وفي كل وقت دخوله عليها. ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾.

فعن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي والضحاك وقتادة والسدى[٢] أنَّ المراد بالرزق هنا: فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، ورواية أخرى لمجاهد:وجد عندها علماً أو صحفاً فيها

---

(١) المفردات في غريب القرآن كتاب الحاء: ١١٢ مادة (حرب) وانظر: تفسير ابن جرير ١٦٦/٣.، والدر المصون ٨٧/٢.

(٢) سعيد هو: سعيد بن جبير الأسدي أبو عبد الله، تابعي حبشي الأصل كان أعلم أهل الكوفة، أخذ العلم عن ابن عباس وابن عمر، توفي سنة ٩٥ هـ. (انظر: تهذيب التهذيب ١١/٤) وأما إبراهيم فهو: إبراهيم بن يزيد أبو عمران النخعي، من أكابر التابعين والمحدثين، فقيه أهل العراق، مات سنة ٩٦ هـ (انظر: طبقات القراء٢٩/١).
والضحاك: هو أبو القاسم الضحاك بن مزاحم البلخي الخرساني كان مفسراً ومؤدبا توفي سنة (١٠٥هـ) (انظر: ميزان الاعتدال ٤٧١/١). والسدى:هو إسماعيل بن عبد الرحمن، تابعي حجازي سكن الكوفة، صاحب التفسير والمغازي والسير توفي سنة (١٢٨هـ). (انظر: النجوم الزاهرة ٣٠٨/١).

عِلم[1]، وقيل: كانت ترزق غير رزق بلادهم، وقال ابن عباس: كان عنباً في مكتل و لم يكن في تلك البلاد عنب، **وذهب أكثر المفسرين إلى الرأي الأول**[2].

● ثم حقّق زكريا الطَّيِّلاً ذلك المبدأ العظيم (**من أين لك هذا؟**) أمام تلك الخارقة وتلك الكرامات لمريم عليها السَّلام فقال: ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾.**ومعنى (أنّى) هنا تحتمل أحد معنيين:**

قيل: من أين لك هذا الرزق الّذي لا يشبه أرزاق الدنيا؟ وهو آت في غير حينه والأبواب مغلقة عليك؟ فيكون السؤال عن الجهة والمكان، **وهذا الّذي عليه أكثر المفسرين**[3] وقيل: المعنى: السؤال عن الكيفية، والمراد كيف تهيأ لك ذلك الرزق؟ وقد أغلقت عليك الأبواب؟ **وقد فرق بعض المفسرين بين استعمال (أنّى وأين)** [4]: (فأنّى) تأتي للسؤال عن الجهة، (وأين) للسؤال عن المكان.

● ثمّ أتى الجواب الحق:﴿ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾. والمراد أنَّ الله تعالى هو الّذي ساقه إليها وأعطاها [5] إيَّاه فأيَّ عجبٍ في ذلك؟

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٦٤٠/٢.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ٦٦/٨، ومعالم التنزيل ٤٥٧/٣، والكشاف ١٨٧/١. والبحر المحيط ٤٤٣/٢، والجامع لأحكام القرآن ٧١/٤، وأنوار التنزيل:٧٢. قال المراغي: (ليس لدينا مستند صحيح من كتاب، ومسند يؤيد هذه الروايات الإسرائيلية) تفسير المراغي ١٤٥/١.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٦٤٠/٢، والكشاف ١٨٧/١، وتفسير الخازن ٢٣١/١ ومعاني القرآن للزجاج ٤٠٣/١، والبحر المحيط ٤٤٣/٢.

(٤) انظر: معالم التنزيل للبغوي ٤٥٧/١.

(٥) قال الزجاج: في معنى قوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ فمن آياتها: أنّها =

- ثمّ أتى ذلك التعليل القاطع والمنطقي بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ فيكون بذلك موقع الجملة:

- إمّا خبر من الله تعالى، بتفضله على عباده، [(١)] - وإما أنْ تكون تعليلية، فتكون إمّا من كلام مريم عليها السَّلام حيث إنّه لا عجب ولا استنكار بأنْ يُكَرِّمَهَا الله تعالى برزق من عنده.

- وإمّا أنْ تكون مستأنفةً من كلام زكريا عليه السلام [(٢)].

والمعنى: أنّ الله يسوقُ رزقه إلى من يشاء من خلقه، بغير إحصاءٍ ولا عددٍ ولا مطالبة.

* * *

=

أوّل امرأة قُبلت في نذر في المعبد، ومنها أن الله أنشأ فيها عيسى من كلمة ألقاها إليها، ومنها أن الله تعالى غذاها برزق من عنده، وقيل: "إنّها لم تلقم ثديا قط " معاني القرآن وإعرابه ٤٠٤/١.

(١) انظر: تفسير ابن جرير ١٦٧/٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧٢/٤، والدر المصون ٧٩/١.

المطلب الثاني
اصطفاء زكريا عليه السَّلام وزوجه

قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾[1].

قصّ الله تعالى كرامةً أخرى من كرامات آل عمران، ومواقف عظيمة ومتعددة سجلت في القرآن الكريم لتلك الأسرة شرفاً لها وسأعرض هذه المواقف في اللطائف التالية:

* اللطيفة الأولى: رجاء الولد:

عندما استشعر زكريا عليه السَّلام ما جاء في قوله تعالى﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾-وهذا لا يعني أنّه كان شاكاً في قدرة الله تعالى غير مجوّز وقوع الخوارق من عنده تعالى - بل كان من حسن أدبه عليه السَّلام مع الله تعالى يراعى الوقت الأنسب للطلب، حيث لا يدعو الإنسان إلّا ما هو معتاد الوجود. فقصَّ تعالى حاله بقوله:

---

(١) سورة آل عمران ٣٨ – ٤١.

• ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾ فجملة (هنالك) قيل: ظرف يستعمل (للمكان) ويأتي على نحو الإشارة (هذا)، وقيل هو: للزمان خاصة، وأمّا المكان فلفظه (هنالك). **والّذي عليه الأكثر**: أنّه ظرفٌ يستعمل للمكان والزمان (اللام للبعد، والكاف للخطاب)[(١)] **والمعنى**: عندما رأى زكريا في ذلك المكان (المحراب) وذلك الزمان ما رأى من كرامات وخوارق للعادات، عند مريم عليها السَّلام من وجود فاكهة الصيف في الشتاء و فاكهة الشتاء في الصيف، وما رأى من كرامة أخت زوجه من الإنجاب – على الرغم من أنها (عاقر) – عندها:

استشعر زكريا قدرة الله في ولادة العاقر من الشّيخ الكبير، وأنّه لا يعجزه شيْءٌ في الأرض ولا في السماء، فطمع في أنْ يخرق الله تعالى تلك العادة في حقه فحصل له رجاء الولد ليخلفه نبياً في بني إسرائيل وليس لمجرد حُبِّه للبنين، حيث وهن العظم منه، واشتعل رأسه شيباً[(٢)] وخشي انقطاع ميراث النبوة من آل يعقوب، وكما تعلّق به سبب آخر مانع للإنجاب وهو عُقر زوجه وشيخوختها.

• فـ ﴿ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾ عن عكرمة والسدى: فدخل المحراب وغلق الأبواب فصلّى ثم دعا ربه سراً شاكياً حاله سائلاً الولد قائلاً:

• ﴿ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾.

---

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج١/٤٠٤،وإعراب القرآن للنحاس١/٣٧٢،وتفسير غرائب القرآن على هامش تفسير ابن جرير٣/١٧٩،والكشاف١/١٨٨،والتفسير الكبير٨/٣٢،والدر المصون ٢/٧٦.

(٢) اقتباس من قوله تعالى من سورة مريم: ﴿ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا ﴾.

(والهبة): (أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض) [1].

وقد خصَّ زكريا الله تعالى بالطلب بتقديم (الجار والمجرور)، والمراد: عطية من عندك لا من عند غيرك، لأنَّه لم يكن الطلب على الوجه المعتاد والأسباب المعهودة للإنجاب.

- قوله: ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾:

والمراد بالذرية هنا: الواحد لا الجمع، بدليل قوله تعالى في سورة مريم ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ [2] ولم يقل أولياء.

والمراد: أنّ زكريا عليه السَّلام طلب من الله إن يرزقه ولداً مباركاً صالحاً رضياً [3] ثم توسل لله تعالى بأسمائه وصفاته، على نحو ما توسلت به. (حنة بنت فاقود)، بأنْ يجيب الله دعاءه ولا يُخيّب رجاءه بقوله: ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾.

* اللطيفة الثانية: البشارة بولادة يحيى عليه السَّلام:

- قوله: ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾.

وقد ذهب المفسرون إلى أنَّ المنادِي هنا إمّا: جماعةٌ من الملائكة، ومنهم من ذهب إلى أنَّ المراد: جبريل عليه السلام.

ورجح الرأي الأول كثيرٌ من المفسرين: حيث لا يجوز أن يحمل تأويل القرآن إلاّ على اللفظ الظّاهر، وهو الجمع [4].

---

(١) المفردات في غريب القرآت: ٣٣، كتاب الواو مادة (وهب).

(٢) سورة مريم آية / ٥.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير ١٦٨/٨.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير ٦٨/٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٦٤١/٢،، والكشاف ١٨٨/١، والتفسير الكبير ٣٤/٨.

• ثم كانت تلك البشارة على حالة فضلى وهو ﴿ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾ في مقام خلوته ومجلس عبادته وهو يصلي [١]، بقوله: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾:

والتبشير: إخبارك المرء بما يسره من خير [٢]، والأصل فيها لا تكون إلا في الخير، وإذا أتت خلاف ذلك فتكون مجازاً على سبيل السخرية والاستهزاء على نحو قوله تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[٣].

ويحيى عليه السَّلام: قد ورد ذكره في القرآن (خمس) مرات[٤].

وهو: يحيى بن زكريا بن دان، ينتهي نسبه إلى سليمان بن داود عليهما السَّلام، وهو من أسباط يعقوب عليه السَّلام، ولد قبل ولادة ابن بنت خالته (عيسى عليه السَّلام) [٥].

* اللطيفة الثالثة: صفات يحيى عليه السَّلام:

وبعد أنْ بَشَّر الله زكريا بولادة (يحيى) عليهما السَّلام ذكر من صفاته أربع صفات، والمتأمّل فيها يدرك أنّها ركائز النبوة:

---

(١) ذكر الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار(٣/٢٩٧) أن المراد بالصلاة هنا (الدعاء) والمعنى: إن زكريا نودي وهو قائم يدعو بذلك الدعاء (الوارد في سورة مريم) ولذا أتى التعبير (بالفاء) للتعقيب، فالصلاة دعاء والدعاء صلاة، ولذا استنكر على من استدل على ذلك بمشروعية الصلاة في جميع الديانات.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ٣/١٨٥، والمفردات في غريب القرآن: ٤٨ مادة (بشر).

(٣) سورة النساء آية / ١٣٨.

(٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، باب الحاء: ٢٢٥ مادة (يحيى).

(٥) انظر: تفسير ابن جرير٣/ ١٧٢،ومعالم التنزيل ١/٤٦٠، والبحر المحيط ٢/٤٤٦.

• ﴿ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ والمُجْمَعُ عليه لدى أهل التفسير أنَّ المراد (بالكلمة) هنا هو: عيسى بن مريم، ويكون (يحيى) بذلك أوّل من آمن بعيسى [(١)].

• ﴿ وَسَيِّدًا ﴾ أي: شريفاً في العلم والعبادة، وقيل الحليم، وقيل: التقيّ، وقيل: الكريم على الله، وقيل: الفقيه العالم، وقيل: الَّذي لا يغلبه الغضب [(٢)].

والواضح أنَّ جميع المعاني متقاربة، فمن كان سيداً في الدّين لزم فيه التَّحلي بجميع الصِّفات من الشّرف والعلم والحلم، والكرم والتقوى، وغيرها من الصّفات الَّتي تجعله سيّداً ويفوق بها أقرانه.

• ﴿ وَحَصُورًا ﴾:

الحصر في اللّغة: الحبس، ورجلٌ حصور: إذا حبس رفده و لم يخرجه، فكان عليه السَّلام (حصوراً) لا يشتهي النساء[(٣)].

وللمفسرين في هذا الشأن قولان:

فمنهم من قال: بعدم قدرته عليه السَّلام على إتيان النساء لعجز لديه، ومنهم من قال: أنه كان يكُفّ عنهن منعاً لنفسه عن الشهوة مع القدرة، تعففاً وزهداً [(٤)].

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير ١٧٢/٣.

(٢) انظر: المرجع السابق.

(٣) انظر: المصباح المنير كتاب الحاء، باب الحاء مع الصاد وما يثلثهما ١٥٠/١ مادة (حصره)، ومعاني القرآن للفراء ٢١٣/١.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير ١٧٤/٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٦٤٣/١، ومعالم التنزيل ٤٦١/١.

والواضح والله أعلم:

أنّ المقام مقام مدح وعلى هذا فلا يكون الصّواب إلّا القول الثاني، لأنّ المدح لا يكون إلا على أمرٍ مكتسبٍ يقدر فاعله على خلافه، لا على ما كان من أصل الخِلقة والجِبِلَّة، فضلاً عن أنْ هذا الرأيَ بعيدٌ كل البعد من جهة إلحاق هذه الآفة بالأنبياء عليهم السَّلام.

- ﴿ وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾:

هذه أشرف الأوصاف وأعلاها.

والمعنى: سيكون من أصلاب الأنبياء، أو ناشئاً من الصالحين، لأنّ للأنبياء قدراً من الصلاح لو انتقص لانتفت نبوتهم، فمن كان أكثر نصيباً من الصلاح كان أعلى قدراً [(١)].

قال أبو حيان:

(فذكر أولاً الوصف الَّذي تنبني عليه الأوصاف بعده وهو التّصديق الَّذي هو الإيمان، ثم ذكر السّيادة وهي الوصف الَّذي يفوق به قومه، ثم ذكر الزهادة وخصوصاً فيما لا يكاد يزهد فيه وذلك النساء، ثم ذكر الرتبة العليا وهي النبوة) [(٢)].

* اللطيفة الرابعة: استعظام زكريا عليه السَّلام لإنجابه الولد:

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ

(١) انظر: البحر المحيط ٢/٤٤٩، والتفسير الكبير ٨/٣٧.

(٢) البحر المحيط ٢/٤٤٩.

وأبو حيان هو: محمد بن يوسف بن علي الأندلسي، أبو حيان من كبار علماء اللغة والتفسير والحديث والتراجم، ولد في غرناطة، وتوفي بالقاهرة ٧٤٥ هـ، (انظر: بغية الوعاة: ١٢١).

ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [1].

● بعد أنْ تحقق دعاء زكريا، وبشَّره الله تعالى (بيحيى) عليه السَّلام، وقع منه هذا الاستفهام والتعجب مخاطباً فيه الله تعالى بقوله:

﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ والظَّاهر مخاطبة زكريا لله تعالى وليس للمَلَك[2] في حين أنْ البشارة أتته على لسان الملائكة.

والمتأمّل في ذلك، يدرك أن ما دفع زكريا إلى ذلك هو التّعجل في إجابة الدعاء، وللمزيد من التضرع والجد في طلب الجواب على سؤاله من الله تعالى.

● فأتى استفساره بقوله: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ ﴾؟

وفي الاستفهام هنا وجهان[3]:

الأول: بمعنى (من أين)؟

والمراد هل يرزق هذا الولد من امرأته العاقر أم من امرأة أخرى؟

والثاني: بمعنى (كيف)؟ والمراد بأيٍّ سبب استوجب هذا الغلام[4]؟ وفيه وفي زوجه من الأسباب ما تمنع حدوثه في العادة.!

● فوصف حاله بقوله: ﴿ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞ ﴾ أي والحال أنّه أدركني الكبر والضعف والجهد، وعن أهل التفسير:

---

(١) سورة آل عمران آية / ٤٠.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٦٤٤/٢.

(٣) انظر: المرجع السابق.

(٤) من الغلمة: وهو شدة طلب النكاح، انظر: المفردات في غريب القرآن كتاب الغين:٣٦٤ مادة (غلم)، والمصباح المنير ١٠٥/٢ كتاب الغين باب الغين مع اللام وما يثلثهما ١٠٥/٢ مادة (الغلام)، ولعل أتى التعبير به هنا دون لفظ (الولد) كما في قصة مريم عليها السَّلام: لأن زكريا عليه السَّلام هو الطالب له. والله أعلم.

أنّه كان يوم التبشير قد تجاوز التسعينيات، وقيل ابن مئة وعشـــرين سنة، فضلاً عن أن زوجه كانت عاقراً ومُسنَّة [١].

والعاقر: من لا يُولدَ له رجلاً كان أو امرأة، مأخوذاً من العَقْر: وهو القتل،كأنَّهم تخيلوا فيه قتل أولاده[٢]. والعاقر: يكون عَقْرُهُ مـــن جهـــة النَّسب[٣]، أي أن العَقْر أمرٌ لازمٌ له و لم يكن وصفاً طارئاً عليه[٤]،ولـــذا وصف زكريا عليه السَّلام امرأته بقوله (عاقراً) فهو لازمٌ لها، ولو كـــان غير ذلك لقال عقيرة: أي بها عِقَرَاً نحو كِبَرَاً من السِّن يمنعها من الولد[٥]، والحاصل أنَّ استفهام زكريا عليه السَّلام لم يكن شكاً في تلك البشارة أو استنكاراً لقدرة الله تعالى، بل كان استعظاماً وتعجباً لقدرة الله تعالى على تلك النعمة لا لمحض الاستبعاد والاستنكار [٦].

- ورداً على ذلك الاستعظام أخبر تعالى عن عظيم قدرته، وســـعة مشيئته وأنَّه لا يعجزه شيء بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾.

فمتى شاء أمراً أوجد سببه، أو خلقه بغير سبب فـــلا تَحَـــوُّلَ دون مشيئته شيء، ولذا أتى بـــ (الكاف) للتشبيه [٧].

والمراد: أنَّ الله يفعل ما يشاء من العجائب، ومن ذلك إنشاء الولد

---

(١) انظر: التفسير الكبير ٣٨/٨، والكشاف ١٨٨/١، ومعالم التنزيل ٤٦٢/٣، وتفسير الخازن ٢٣٢/١.

(٢) الدر المصون ٨٧/٢، وانظر: المصباح المنير٧١/٢ كتاب العين، باب العين والقاف ومـــا يثلثهما مادة (عقره عقرا).

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج ٤٠٨/١.

(٤) انظر: البحر المحيط ٤٥٠/٢.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧٩/٤، وفتح القدير للشوكاني ٣٣٨/١.

(٦) انظر: فتح القدير ٣٣٨/١.

(٧) انظر: البحر المحيط ٤٥٠/٢.

من شيخ عجوز، وامرأة عاقر فلا يعجزه شيء سبحانه وتعالى.

*** اللطيفة الخامسة: شكر نعمة الولد:**

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾[(١)].

والمراد (بالآية) هنا: علامة يعرف بها صحة حمل زوجته، **ولعلّ في غاية (زكريا) من طلب تلك (الآية) العديد من الأمور والغايات منها:**

١. كي يتلقى تلك النّعمة بمزيد من الشكر لله تعالى[(٢)]. تعظيماً وإجلالاً له تعالى على تلك المنحة.

٢. للدلالة على صحة حمل زوجته[(٣)].

٣. لمجرد معرفته بوقت الحمل، لأنّ الحمل عادة لا يعرف في أيامه الأولى وهذا من باب استعجال سرور البشرى[(٤)]..

- فاستجاب الله تعالى لذلك الطلب بقوله: ﴿ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ ﴾ .

وقد اختلف المفسرون في المراد بتلك (الآية) ومنعه عليه السلام من الكلام وذلك على **أقوال ثلاث:**

أحدها: إنّ الله تعالى حبس لسان زكريا ثلاثة أيّام عن خطاب الناس – دون آفة أو مرض – ولكن ينطلق بالذكر والتسبيح.

---

(١) سورة آل عمران آية / ٤١

(٢) انظر: معالم التنزيل ٤٦٢/٣، وتفسير الخازن ٢٣٣/١ وأنوار التنزيل:٧٣.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير ١٧٦/٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٦٤٥/٢، والبحر المحيط ٤٥١/٢.

(٤) انظر: التفسير الكبير ٤٠/٨.

الثاني: أن يأمر الله تعالى زكريا بأن يحبس لسانه عن مخاطبة النـــاس ثلاثة أيام، فيكون بذلك مأموراً، ولا يطلقه إلّا بالذكر والتسبيح.

الثالث: أنّ الله تعالى حبس لسان زكريا ثلاثة أيام – عقوبةً منه – لكونه كان شاكاً في البشرى –، فسأل الآية بعد المشـــافهة[1]، **والّـــذي يبدو راجحاً – والله أعلم – من الأقوال الثلاث هو: القـــول الأوّل، ورجحه كثير من المفسرين [2] حيث:**

١.إنّ الله تعالى بعد أنْ بيّن هذه الآية أعقبها بقولـــه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴾. يعني في الأيام المقابلة لمنعك من مخاطبة الناس.

٢.إنّ هذا التأويل أولى وأقرب وأنسب في حق الرسل والأنبيـــاء، لأنّه يظهر لوناً من الآيات الباهرات الّتي تتمثل في القدرة علـــى الـــذكر والتّسبيح مع العجز عن الكلام مع النّاس، وذلك مع صحة الجسم وسلامة الجوارح.

● ثمّ أتى تعالى بذلك الاستثناء مشيراً إلى طريقة تعامله مع النـــاس بقوله:﴿ إِلَّا رَمْزًا ﴾.

والرمز: الإشارة والإيماء، والمراد بها هنا: الإشارة بتحريك الشفتين باللفظ من غير إبانة بصوت، وقد يكون إشارة بالعينين، أو الحـــاجبين أو

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير ١٧٧/٣، ومعالم التـــتريل للبغوي ٤٦٣/١، روح المعاني للألوسي ١٥٠/٣.

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج ٤٠٩/١، وتفسير ابن جرير ١٧٧/٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٤٦٥/٢، ولباب التأويل ٢٣٣/١، ومعالم التنـــزيل ٤٦٢/٣، والبحر المحـــيط ٤٥١/٢، وروح المعاني ١٥٠/٣.

الفم ونحوه[1].

المراد: أنّ علامة ذلك الحمل ألا تقدر على تكليم الناس ثلاثة أيام، بل تعجز عن خطابهم، بحبس من الله تعالى، إلّا بالإيماء والإشارة منــك، ولكنّك لا تعجز عن ذكر الله وتسبيحه طوال تلك الأيام الثلاثة وطــوال الوقت (بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ).

ووقت العشي: من زوال الشمس إلى الغروب، أمّا الإبكار: ما بين صلاة الفجر إلى وقت الضحى[2]، والمتأمّل: يدرك أنّ الأمــر بالتســبيح والذكر استغرق طوال ساعات النّهار والليل.

* * *

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤٠٩/١، ومعاني القرآن للأخفش ٤٠٦/١.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ١٧٧/٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٦٤٥/٢ ولباب التأويل ٢٣٣/١، ومعالم التنــزيل٤٦٢/٣، والبحر المحيط ٤٥١/٢، والمفردات في غريب القرآن كتــاب العين: ٣٣٥ مادة (عشا) وكتاب الباء:٥٧ مادة (بكر).

المطلب الثالث

اصطفاء مريم وابنها عيسى عليهما السَّلام

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾.

وعند تأمّلنا في هذه الآيات نجد أنّ هناك العديد من الأمـــور الّـــتي جعلت مريم عليها السَّلام وابنها عيسى عليه السَّلام في مصافّ المصطفين من أسرة آل عمران، وسوف أتحدث عنها في اللطائف التالية:

* اللطيفة الأولى: اصطفاءان وطهر:

بعد أن ذكر الله تعالى العديد من أحداث (آل عمران) ومنها قصة زكريا ويحيى عليهما السَّلام شرع في بيان طهارة وفضل (مريم عليها السَّلام) حيث قال: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[١].

● أشار تعالى إلى اصطفاء (مريم عليها السَّلام) ضمن اصطفاء أسرة آل عمران فقال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ والمعنى: واصطفى الله آل عمران إذ قالت الملائكة يامريم.

وكثيرٌ من المفسرين يقول: المراد بالملائكة هنا (جبريل عليه السلام)[٢].

قال الرازي[٣]: (وإنْ كان هذا عدولاً عن الظَاهر إلَا أنَه يجب المصير إليه، لأنَ سورة مريم دلَت على أنَ المتكلم مع مريم عليها السَّلام هو جبريل عليه السَّلام.وهو قوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾[٤].

وهذا الخطاب ليس بشرع خُصَّتْ به عليها السَّلام، وإنّما هو كرامة لها من عند الله تعالى أو يكون على سبيل الإلهام والنفث في الرَّوع، فذلك جائز في حقّ أولياء الله تعالى، حيث إنّ الجمهور على أنّه لم تستنبئ امرأة

---

(١) سورة آل عمران أية / ٤٢-٤٣.

(٢) انظر: غرائب القرآن للنيسابوري على هامش جامع البيان ١٩٥/٣، ومعالم التنزيل ٤٦٣/٣، والبحر المحيط ٤٥٥/٢، وتفسير ابن كثير ٥٤٣/١، وأنوار التنزيل:٧٣.

(٣) التفسير الكبير ٤٢/٨.

(٤) سورة مريم آية /١٧.

أبـــداً لقولـــه تعـــالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾[(١)] وقد يكون إرهاصاً لعيسى، أو معجزةً لزكريا الطَّيْلاِ.

- قوله: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ﴾:

هي مريم ابنة عمران بن ماثان، ينتهي نسبها إلى سليمان بن داوود عليهم السَّلام (أم عيسى) ووالدهّا: (امرأة عمـــران)[(٢)] وخالتـــها: زوج كافلها (زكريا) وأمّ (يحيى) عليهم السَّلام[(٣)].

ورد ذكرها في القرآن (٣٤) أربعاً وثلاثين مرّةً في سورة (البقرة، وآل عمران، و النّساء، والمائدة، والتّوبة، ومريم، والمؤمنون، والأحزاب، والزخرف، والحديد. والصف، والتحريم)[(٤)].

- **وقد ورد في حقّها عليها السَّلام اصطفاءان وطهر:**

قال عز وجـــل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢ ﴾.

فالمراد بالاصطفاء الأول:

إنَّ الله تعالى اختار مريم عليها السَّلام محـــررةً لخدمـــة الكنيســـة، وخصَّها بالكرامات منذ ولادهّا،

ومعنى ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ أي من الكفر والشك والـــذنوب، وســـائر الأدناس[(٥)].

---

(١) سورة يوسف آية / ١٠٩.

(٢) الوارد اسمهما في كتب التفاسير (حنة بنت فاقود) انظر: تفسير ابن جرير٣/١٥٧.

(٣) الوارد اسمها (أشيع بنت فاقود)، انظر: تفسير ابن جرير٣/١٥٧.

(٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٦٦٥، باب الميم مادة (مريم).

(٥) انظر: معاني القرآن للزجاج ١/٤١٠،وتفسيرابن جرير٣/١٨٠،والبحر المحيط٢/٤٥٥.

أما الاصطفاء الثّاني:

المراد به أنَّ الله اختارها على نساء العالمين بطاعتها وولادهما لعيسى عليه السلام[1]، والمراد بـ ﴿نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي جميع نساء العالم، ومن المفسرين من قال: إنَّ المراد جميع نساء زمانها، والَّذي يبدو راجحاً: القول الأول لحديث أنس عن النبي ﷺ: قال (حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون)[2].

وذكر الفخر الرازي أن هذا الحديث دلَّ على أنَّ الأربعة أفضل من الكل، وأشار إلى ما أن عدا هذا القول فهو ترك لظاهر النّص [3].

● وبعد بيان علو درجتها ومترلتها بدأ تعالى تأهيلها إلى تلك المحنة الكبرى، حيث خلق منها ولداً من غير أب، فخاطبتها الملائكة أن تكثر من العبادة والخشوع والركوع والسجود والدأب في العمل بقوله تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ .

والقنوت: أصله طول القيام في الصلاة[4]، والقانت: المطيع الخاضع، وقوله: ﴿ٱقۡنُتِي﴾ قال الزجاج: أي اعبديه بالقول والعمل[5]، وذهب الحسن و قتادة:أي: اعبديه، وقال مجاهد وابن جريح والربيع:

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير ٣/ ١٨٢،وتفسير ابن ابي حاتم ٦٤٨/٢،وتفسير البغوي ٤٦٤/٣،وتفسير ابن كثير ٥٤٣/١.

(٢) أخرجه الترمذي في الجامع، كتاب المناقب باب فضل خديجة رضي الله عنها ٦٦١/٥، وقال حديث صحيح.

(٣) انظر: التفسير الكبير ٤٤/٨، والبحر المحيط ٤٥٦/٢.

(٤) انظر المفردات في غريب القرآن، كتاب القاف: ٤١٣ مادة (قنت).

(٥) معاني القرآن للزجاج٤١٠/١.

المراد:طول القيام في الصلاة وقال: ابن جبير: الطاعة أو الإخلاص[١].

والواضح: أنّ ما ذهب إليه الزجاج يندرج ضمنه جميع المعاني، وبخاصة أنّ الآية خَصَّصَت ذلك الأمر بتوجه العبادة لله وحده وهذا في قوله: ﴿ لِرَبِّكِ ﴾.

● ثم أتى الأمر بالركوع والسجود بالتفصيل بقوله: ﴿ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾، وإرشادها إلى صلاة الجماعة، وأنْ تفعل مثل فعلهم وإنْ لم تصلِ معهم[٢].

● ثمّ أكَّد تعالى نبوة نبيه محمد ﷺ.قال عزَّ وجل: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

فالإشارة بـ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إلى جميع الأمور العجيبة والقصص الغريبة الَّتي قصّها الله تعالى.

والوحي هو: الإشارة السريعة الخفية، ويراد به: الكلمة الإلهية الَّتي تُلقى إلى أنبياء الله تعالى وأوليائه [٣].

وفي هذا إقامة الحجة الدامغة لمنكري الرسالة المحمدية، حيث إنَّ الرسول صلّى الله عليه وسلم أميٌّ لا يقرأ أخبار التّوراة، وإنَّ أهلها يُقِرُون بذلك فَتَعَيَّنَ بالأولويَة أنْ يكون علمه بذلك وحيٌ من الله تعالى.

وفي موقع هذه الجملة بين أحداث القصص السابقة العديد من الفوائد:

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير٣/١٨٣،وتفسير ابن ابي حاتم ٢/٦٤٨،وتفسير البغوي ٣/٤٦٤،وتفسير ابن كثير١/٥٤٣.

(٢) انظر: المراجع السابقة.

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن: ٥١٥ كتاب الواو مادة (وحي).

١ – إثبات أنّ النبيَّ ﷺ نبيٌ يوحي إليه، حيث إنّ جميع ما رَوَى هو من الأمور الغيبية على الرسول صلّى الله عليه وسلم وقد عَلِمَها بـالوحي لقوله: ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾.

٢ – التأكيد على غرابة قصـص تلـك الأسـرة (آل عمـران) والأعاجيب الَّتي أحاطت بقصّة (عمران وزكريا ويحيى ومريم)، ثمّ التنويه خاصةً على(كفالة مريم) عليها السَّلام، وما هو حادث بين المتنازعين من تدافعهم لكفالتها، وما ذاك إلاّ تأكيدا لاصطفائها عليها السَّلام.

* اللطيفة الثانية: البشارة الكبرى لمريم عليها السَّلام:

وبعد أن خاطبت الملائكة مريم عليها السَّلام، وبشرها باصطفاء الله تعالى وتطهيره لها، وأمرها بمزيد من العبادة والاستغراق في شكره، أضافت لها شرفاً آخر وهو تلك البشارة الكبرى.

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾[1].

- ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ ﴾.

(إذ) تُشير إلى شرف آخر علا بتلك الأسرة لتكون من المصـطفين عند الله تعالى، والتقدير: واصطفى الله آل عمران إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك، والمراد بالملائكة جبريل عليه السَّلام، والبشارة أتت هنـا على أصلها أي في الخير.

﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ اختلف المفسرون في المراد بالكلمة هنا:

فقيل: أي برسالةٍ من الله وخير من عنده، وقيل: بمعنى (كُـن) لأن

(١) سورة آل عمران آية / ٤٥.

الله تعالى خَلَقَهُ بها من غير مُسَببات، وقيل: هي اسمٌ لعيسى سمّاه الله تعالى بها، وقيل: بولدٍ لا أبَ له[١]، والمراد أنّ الملائكة بَشَّرت مريم بأنَّهُ سيكون لها ولدٌ من غير زوج.

• ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾:

وهو آخرُ أنبياء بني إسرائيل اسمه (عيسى) ولقبه (المسيح) ويُكنى (ابن مريم)، و (عيسى) اسم أعجمي، ورد اسمه في العبرية (يشوع) وفي الإنجيل (يسوع) بالسين[٢].

وفي سبب لقبه بالمسيح اختلاف بين المفسرين:

فقيل: مأخوذٌ من المسح لأنّه يمسحُ الأرضَ جميعاً، وقيل: لأنّهُ لا يمسح ذا عاهة إلاّ وبُرِءَ بإذن الله، وقيل: لأنّه كان ممسوح الأخمصين، وقيل:لأنّ الجمال مَسَحَهُ وقيل لأنَّه مسحٌ من الذنوب[٣].

قوله: ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾: نسبه الله تعالى إلى (مريم) لإشعارها أنه سَيُخْلَقُ من غير أب.

* اللطيفة الثالثة: صفات عيسى عليه السَّلام:

• ثم ذكر تعالى صفات عيسى عليه السلام بقوله: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٥ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦﴾.

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير ١٨٥/٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨٩/٤.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير ١٨٥/٣، وتفسير ابن كثير ٥٤٥/١ والجامع لأحكام القرآن ٨٩/٤.

• وقوله: ﴿وَجِيهًا﴾ الوجيه: الَّذي له منزلة رفيعة عند ذوي القدر والمعرفة[1]. والمراد أنّه عليه السلام كان ذا وجاهةٍ ومنزلةٍ عاليةٍ وشرفٍ وكرامةٍ عند الله وعند البشر، فأمّا وجاهته في الدنيا فبسببِ النبوة، وما كان عليه من إبراء الأكمهِ والأبرصِ وإحياءِ الموتى، وأمّا وجاهته في الآخرة فلحصول شفاعتهِ وعُلوِ درجته عند الله، ولذا وصفه تعالى بقوله:﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[2].

• ثم وصفه تعالى بقوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ فالمهد: مضجع الصّبيّ في رضاعه[3].

• والمراد: أنّه عليه السلام لم يكلم النّاس إلا في هاتين الحالَّتين، فقد تكلّم في المهد لبراءة أُمّه (مريم) عليها السَّلام حين رماها قومها بالفاحشة[4].

• **واختلف المفسرون في كلام عيسى في المهد على أقوال:**
• قيل: تكلّم لحظة براءة أمّه ثمّ لم يتكلّم حتّى بلغ مبلغ النُّطق.
• وقيل: كان يتكلم دائماً في المهد حتّى بلغ.
• **والأكثر على القول الأول**[5]. فهو حجةٌ على نبوته عليه السلام، وأَبلغ في التحدي وخرق العادة.

---

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج ١/٤١٢، ومعجم الصحاح٢/٣٢٤ كتاب الواو باب الواو مع الجيم وما يثلثهما مادة (وجه).
(٢) تفسير ابن جرير ٣/١٨٦.
(٣) تفسير ابن جرير ٣/١٨، والجامع لأحكام القرآن ٤/٩٠.
(٤) قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سوء...﴾ سورة مريم من آية ٢٧ إلى ٣١.
(٥) انظر: تفسير ابن جرير ٣/١٨٨، ومعالم التنزيل ١/٤٦٦، والبحر المحيط ٢/٤٦٢، ولباب التأويل ١/٢٣٥.

• والمثبت في الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن الـنبي صلّى الله عليه وسلّم قال: (لم يتكلم في المهد إلّا ثلاثة) [(١)] وذَكر منـهم عيسى ابن مريم.

• وأمّا قوله: ﴿وَكَهْلًا﴾ أي يُكلم النّاس في مرحلة الكُهولـة، وهي: مرحلة ما بين سن الشباب والشيخوخة وأولها سِنُّ الثّلاثين، وقيل: الّذي تجاوز الثَلاثين، وقيل: سِنُّ الأربعين وآخرها السّتين، ثمَ يكون سِنُّ الكهولة[(٢)]، وقيل: الَّذي خطَّه الشَّيب.

والمراد: أنّ عيسى عليه السلام يكلّم النَاس في حالة الكهولـة بالـدعوة والرسالة، وهي الفترة الَّتي يستحكم فيها العقل ويتنبأ فيها الأنبياء، وكان كلامه في المهد معجزة وفي الكهولة دعوة.

• قوله: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي من زمرة وعداد الأولياء والصَالحين

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {واذكر في الكتاب مريم} وذكر في الحديث (صبي كان في زمن جريج، وصبي يرضع من أمه) انظـر فـتح الباري ٤٧٦/٦. وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة والآداب، باب تقديم لوالدين على التطوع بالصلاة على نحو ما أخرجه البخـاري. انظـر صـحيح مسـلم ١٠٦/١٦. وذكر البيهقي من حديث ابن عباس قول النبي صلى الله عليه وسلم: (تكلم أربعة وهم صغار: هذا، (يقصد صبي ما شطة امرأة فرعون) وشاهد يوسف، وصـاحب جريج، وعيسى بن مريم) انظر: شعب الإيمان للبيهقي باب في شح المرء بدينه حديث رقم (١٦٣٦). وأخرجه الحاكم في المستدرك بالاسناد نفسه في كتاب التفسير، باب: شهادة ماشطة ابنة فرعون على ولدها ٤٩٦/٢، وقال حديث صحيح الاسناد و لم يخرجاه.
وهناك أقوال عدة للمفسرين في عدد المتكلمين في المهد. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء، باب (واذكر في الكتاب مـريم) ٤٨٠/٦. والجـامع لأحكام القرآن ٩٠/٤.

(٢) انظر: الدر المصون ٩٧/٢.

الَّذين أنعم الله عليهم وجعلهم من الأنبياء. مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى عليهم السَّلام وغيرهم.

وقد ختم الله تعالى أوصاف عيسى بهذه الصفة حيث إنّها من أعظم المراتب وأشرف المقامات لأنَّ المرء لا يسمى صالحاً إلّا إذا كان متبعاً للنهج الأصلح والطّريق الأقوم في جميع أقواله وأفعاله، وذلك أكمل الدرجات وأعلاها وأشرفها.

*** اللطيفة الرابعة: استبعاد مريم عليها السَّلام لحدوث الولد:**

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [(١)].

- عَقْبَ تلك البشارة خاطبت مريم عليها السَّلام (جبريل) حيث تمثل لها بشراً سوياً [(٢)] مناجيةً الله تعالى بقولها: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾؟

والأسلوب استفهامي، ومعناها: من أين، وكيف يكون لي الولد؟، والحال أنّي لم أكن ذات زوج ولم يمسسني رجل؟ عن طريق الحلال أو الحرام، وكيف يكون ذلك الولد؟ أمن قِبَل زوج؟ أم يخلقه الله تعالى ابتداءً؟

---

(١) سورة آل عمران آية / ٤٧.

(٢) وفي سورة مريم ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ سورة مريم: من آية ١٦ — ٢١.

وقد أتى استفهام (مريم) هنا على سبيل الاستبعاد والتعجب والاستنكار من حدوث الولد من غير أب، لا شكاً في قدرة الله، إذ ذاك من الأمور المستبعدة والمستحيلة، ولا تُوافق السُّنَنَ الجارية.

- فردّ عليها جبريل عليه السَّلام بأمر من الله تعالى قائلاً: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾.

والمراد: لا تتعجب ولا تستبعد، ولا تستنكر فإن الله تعالى كما يقدر على خلق الأشياء مرتبطة بأسبابها، فهو قادر أن يخلقها بغير مسبباتها، ومن ضمن ذلك هذا الخلق العجيب وهو خلق (الولد من غير أب).

- فهو قادر على خلق ما يشاء من الأمور الغريبة والعجيبة وقت ما يشاء لقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧﴾.

* اللطيفة الخامسة: مستقبل عيسى عليه السَّلام.

أخبر تعالى مريم عليها السَّلام ما هو فاعل بهذا الولد – الَّذي بشَّرها به – من الكرامة وعلو المترلة فقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٤٨ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٤٩ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٥١﴾ [1].

---

(١) سورة آل عمران من آية / ٤٨ – ٥١.

• فقد أورد تعالى أموراً أربعة، معطوفاً بعضها على بعض بقولـــه: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

والَّذي عليه أكثر المفسرين. إنّ المراد بقولـــه: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي يتولى تعليمه الخط باليد والكتابة، وقيل: كان أحسن الناس خطـــاً في زمانه[1]، والمراد بـــ ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي: والسُّنَّة، وقيل: العلم وأحكام الشرائع وتهذيب الأخلاق، وقيل: العقل في الدّين، قال الإمام الرازي: لأنّ كمال الإنسان في أن يعرف الحقَ لذاته والخير لأجل العمل به[2].

وأمّا ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾ فالمراد بها الَّذي أنزلت على (موسى عليه السَّلام) وأمّا ﴿ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ فالمراد به إنجيل (عيسى) الَّذي أنزل عليه. ولم يكـــن المراد قبله، وهذا ضمن البشارة لمريم عليها السَّلام أنّ الله أخبرهـــا بأنّـــه سوف يوحي إلى ذلك المولود كتاباً يسمى (إنجيلاً) ويعلّمهُ إيّـــاهُ قبـــل الإنزال[3].

• ثمّ بشّر الله تعالى مريم بقوله: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ وانتصب (رسولاً) على الحال[4].

والتقدير: ويبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل، أو يكلمهم رســـولاً، أو

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير أ / ١٨٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٦٥٣/٢.

(٢) انظر: التفسير الكبير ٥٤/٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٦٥٤/٢، والبحـــر المحـــيط ٤٦٣/٢، وتفسير الخازن ٢٣٦/١، ومعالم التنـــزيل ٤٦٧/٣، والجامع لأحكـــام القـــرآن ٩٣/٤ وغيرها.

(٣) انظر: المراجع السابقة.

(٤) انظر: معاني القرآن للأخفش ٤٠٨/١، ومعاني القرآن للزجاج٤١٣/١،وإعراب القـــرآن للنحاس ٣٧٩/١.

ويجعله رسولاً قائلاً لهم[١]: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بعلامة ومعجزة من ربّكم تَحَقَّقَ قَولي وتَصَدَّقَ خَبَري ويُحَقِقُ بها نبوتي، فأكون بذلك بشيراً ونذيراً.

واختلف في زمن رسالته عليه السَّلام: فقيل: كان رسولاً في حال الصبا، وقيل: أتاه الوحي بعد البلوغ وهو ابن ثلاثين سنة، فكانت نبوته ثلاث سنين، وقيل: وثلاثة أشهر و ثلاثة أيام، ثمّ رفع إلى السماء[٢].

• **ثمّ فسَّر تعالى هذه (الآية) بتعديد بعض المعجزات الَّتي جرت على يد عيسى عليه السَّلام**، وبذلك يكون المراد من لفظ (آية) للجنس لا للمفرد.. وهذه الآيات في قوله:

١ - ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

والمراد: أُصَوِّرُ وأُقَدِّرُ[٣] لكم شيئاً من الطِّين كمثل هيئة الطير، فالكاف وردت (للتشبيه)، قوله: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ الضّمير هنا يعود إلى ذلك الشيء الَّذي يُماثل هيئة الطير، أو إلى الخلق، أو إلى الطَين، أو إلى الطَير. وجميع المعاني تحمل المراد ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. أي فيصير طائراً حَيّاً بأمر الله تعالى، فكان تسوية الطين والنّفخ من عيسى عليه السَّلام، وخَلْقُ الحياة من الله تعالى وفي هذا التّعبير إشارةً إلى خصوصيةِ (الخلق والحياة) للذات الإلهية سبحانه وتعالى.

٢ - قوله: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾ والمراد: وأشفي

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٥٤٦/١.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ١٩٢/٣، والبحر المحيط ٤٦٥/٢.

(٣) معاني القرآن للفراء ٤٦٦/١، والجامع لأحكام القرآن ٩٣/٤.

﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾: وهو الَّذي يولد أعمى، وقيل: من ولد أعمى ويكون مضموم العينين، وقيل: هو الَّذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل، وقيل: هو الأعمى على الإطلاق، فيكون المراد بالكمه: العمى[١].

أما البرص: فهو مرض معروف وهو بياض يعتري الجلد[٢]، وحيث كان قوم موسى بارعون في الطب فأراهم تلك المعجزة في جنس علمهم.

وقد كان عليه السَّلام يداوي بدعائه والمَسْحُ بيده أمراضاً عدّة، ولكن خصّت هذين المرضين بالذكر، لأنّهما داءان معضلان لا يقدر على الإبراء منهما إلّا الله تعالى..

٣ - قوله:﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وكان إحياء عيسى للموتى بدعائه لله تعالى، فكان يدعو لهم، فيستجاب له[٣].

وذكر بعض أئمة التفسير روايات عدة في كيفية إحيائه عليه السَّلام للموتى [٤]. ولم أقف على صحتها.

٤ - قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ وهذه المعجزة من جنس الإخبار عن الغيوب، ولا تكون إلاّ بوحي من الله تعالى و هذا هو الفارق بين علم الأنبياء بالغيوب، وعلم سائر الكهنة والمنجمين الَّذين لا يستطيعون الوصول إلى الغيب إلا عن طريق بعض الأسباب المؤدية إلى علمه.

---

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج ٤١٤/١، وتفسير ابن جرير ١٩١/٣ وتفسير ابن أبي حاتم ٦٥٥/٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٩٤/٤.

(٣) المرجع السابق.

(٤) انظر: معالم التنزيل ٤٦٩/١، والبحر المحيط ٤٦٧/٢، والكشاف ١٩١/١ والتفسير الكبير ٥٧/٨.

وقوله: ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي أخبركم وأعلمكم بما تأكلون مما لم أُعاينه وأُشاهده معكم، أو بما أكلتم البارحة من الطعام، ﴿ وَمَا تَدَّخِرُونَ ﴾ أي ما تخبئونه منه، وقيل المراد: وأُنبئكم بما تأكلون من المائدة الَّتي أنزلها الله عليكم وما تدخرون منها، حيث إنَّ بني إسرائيل طلبوا من عيسى عليه السَّلام أنْ يُنَزِل عليهم مائدةً من السماء، فأخذ الله تعالى عليهم العهد أن يأكلوا منها ولا يخبئوا منها شيئاً فخالفوه، فكان عيسى عليه السَّلام يخبرهم بذلك [١].

- ثمّ أخبر تعالى عن غاية تلك الخوارق الأربع بقوله:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ أي لدلالةٍ وعبرةٍ لكم دالةٍ على صدقي، أنّي رسول الله إليكم – إنْ كنتم مصدقين بذلك – مُقَرِين بتوحيد الله ورسالَّتي.

- ثمّ عُطفت غاياتٌ [٢] أخرى لبعثةِ عيسى عليه السَّلام بقوله:

- ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ أي: وجئتكم أيضاً مصدقاً لشرع التوراة الَّتي نزلت على (موسى عليه السَّلام) لا منكراً لها أو مخالفاً شيئاً من أحكامها، وإنّما مُخَفِفاً عنكم بعض ما شَدَّدَ عليكم حكمه فيها، وهو الَّذي ذكر بقوله: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي بعض الطّيبات الَّتي حُرِّمَت على بني إسرائيل بظلمهم

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٦٥٦/٢، وتفسير البغوي ٤٧٠/١.
(٢) معاني القرآن للأخفش ٤٠٨/١، ومعاني القرآن للفراء ٢١٦/١، ومعاني القرآن للزجاج ٤١٥/١ وإعراب القرآن للنحاس ٣٨٠/١.

وكثرة أسئلتهم، فأحلها عيسى لهم، ومن ذلك تحريم بعض الحيوانات والطيور[1].

- ثمّ أخبر تعالى. ما سيكون عليه عيسى عليه السَّلام ـــ من منهجية كبقية الرسل، في قوله: ﴿ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١) ﴾.

فالمراد بالآية هنا هو: رفع شعار كل نبيٍّ مرسل بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١) ﴾ وهذه أكبر علامة على نبوته وصدقه، وصحة رسالته، فلم يخالف من سبقه ومن سيأتي بعده، وقيل المراد بالآية هنا: الخوارق الَّتي أتى بها عيسى، فتكون على سبيل (التكرار) [2]. وإنّما ذُكرت مفردةً لأنّها جميعاً من جنس واحدٍ في الدّلالة على الرسالة الَّتي تلزم تحقيق العبودية لله تعالى بطريقة لا اعوجاج فيه وهذا هو الصّراط المستقيم.

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) ﴾ سورة النساء أية: ١٦٠. وقوله: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾ سورة الأنعام آية: ١٤٦.
والمراد: أن الله تعالى حرم على قوم موسى أكل كل ما له ظفر وهو: ما ليس منفرج الأصابع من البهائم والطير، فحرم لحمه وشحمه وكل شيء منه، وترك البقر والغنم على التحليل، لم يحرم منها إلاّ الشحم الرقيق الَّذي يكسو الكرش والكلى، وكل شحم غير مختلط بعظم أو على عظم، وأتى الاستثناء فيها على ما علق بالظهر من الشحوم، وكما حرم عليهم أكل (الحوايا) وهي: المرابض الَّتي تكون فيها الأمعاء (أو ما اختلط بعظم) أي حرم كل شحم خالط العظم، إلاّ ما حملت الظهور، فهو غير محرم. انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٢٤/٧. وتفسير ابن كثير ٢٩٦/٢.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ١٩٧/٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٢ / ٦٠٧.

الخاتمـــة

الحمد لله الَّذي بنعمته تتم الصالحات، والصّلاة والسَّلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فلا غرو أنّ كتاب الله تعالى كتاب معطاء مبارك، يعطي الحكمـــة والموعظة، والمثل والعبرة فيه رحمة العالمين، وشفاء المتقين، فهو منارة التائه، ودليل الحائر، ونور القلوب والبصائر.

وبتوفيق من الله تعالى قُدِّرَ لي أن أعيش فترة من الزمن في ظلال هذا الكتاب العظيم مع تلك الآيات الَّتي أفردها الله تعالى شرفاً وكرماً لتلـــك الأسرة الشريفة الكريمة أسرة (آل عمران).

وقبل أنْ أحط قلمي عن هذه الظلال عَنَت لي بعض النتائج مـــن هذا البحث والَّتي منها:

١- إنّ الاصطفاء مرتبةٌ لا ينالها من الخلق إلّا من اصطفاه الله تعالى بخلقه أو باختيار وحكمة من لدنه،كاصطفاء الملائكة الرسل وغيرهم من خلقه.

٢- إنَّ من اصطفاه الله تعالى من خَلْقِهِ لابُدَّ وأن يكون قد اصطفاه من الصّفات الذّميمة وجمّله بالخصال الحميدة، فضـــلاً عـــن أنَّ الرُّســـل مصطفين لإبلاغ هذا الدّين.

٣- إنّ شرف اصطفاء أسرة (آل عمران) يتجلّى فيما كانت عليه تلك الأسرة من الدّين الَّذي اصطفاه الله على جميع الأديان، ولما ظهر فيها من سلالة النبوة والصّلاح الَّتي توالدت بعضها من بعض.

٤- إنّ الرّجاء في الدّعاء والتّوسل بأسماء الله تعالى وصفاته وانقطاع حبل الرجاء عمَّا عداه سبحانه لمن موجبات استجابة الدعوة.

٥- من موجبات استجابة الدّعاء الاستشعار بعظمة قدرة الله تعالى على خرق العادة، وأنَّه لا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، مع عدم التَّعدي في الطَّلب، ومراعاة الوقت الأنسب له.

٦- إنَّ الله تعالى كما هو القادر على خلق الأشياء مرتبطةً بأسبابها فهو القادر على أن يخلقها بغير مسبباتها بقوله: (كن).

٧- إنَّ نعم الله تعالى لابدَّ أنْ يتلقاها المؤمن بمزيد من الشكر والحمد لله تعالى.

هذا وادعو الله تعالى القدير أن يسخر لهذا الكتاب العزيز من طلبة العلم من يخرج خبأه من الأسرار الإلهية في مختلف الأوجه.

* * *

المصادر والمراجع

١. اتّجاهات التفسير في القرن الرابع عشر: فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، الطبعة: الأولى ١٤٠٧هـ.

٢. تاريخ بغداد: أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، أبو بكر، المتوفّى عام (٤٦٣هـ) طبع بمصر ١٣٤٩هـ.

٣. تذكرة الحفاظ: محمد بن أحمد بن عثمان شمس الدين الإمام الذهبي، المتوفّى عام (٧٤٨هـ) حيدر آباد، ١٣٣٣ – ١٣٣٤هـ.

٤. تفسير القرآن العظيم :الإمام عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم، المتوفّى عام (٣٢٧هـ) تحقيق: أسعد محمد الطيب، الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م، مكتبة الباز – الرياض.

٥. تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن عمرأبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، المتوفّى عام (٧٧٤هـ) تخريج الأحاديث وضبط الهوامش، حسين بن إبراهيم زهران – مكتبة الفيصلية – مكة المكرمة.

٦. تفسير الطّبري: محمد بن جرير بن يزيد الطّبري، أبو جعفر، المتوفى عام (٣١٠هـ) دار الفكر – بيروت.

٧. التفسير الكبير: محمد بن عمر بن الحسن البكرى، أبو عبدالله فخر الدين الرازي، المتوفّى عام (٦٠٦هـ)، الطبعة: الثالثة، دار إحياء التراث العربي– بيروت.

٨. تفسير المراغي: أحمد بن مصطفى المراغي، المتوفى عام (١٣٧١هـ) الطبعة: الثالثة، ١٣٩٤م – دار الفكر، بيروت

٩. تفسير القرآن الحكيم: محمد رشيد رضا، المتوفى عام (١٣٥٤هـ) دار

المعرفة – بيروت.

١٠. تهذيب التهذيب: أحمد بن علي بن محمد الكناني،إبن حجر العسقلاني، المتوفى عام (٨٥٢هـ) طبعة: ١٣٢٥هـ - حيدر آباد.

١١. الجامع الصحيح، سنن الترمذي:محمد بن عيسى بن سورة، أبو عيسى الترمذي، المتوفّى عام (٢٧٩هـ) تحقيق أحمد شاكر، طبعة: الفيصلية – مكة.

١٢. أسباب النزول: علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، أبو الحسن، المتوفّى عام (٤٦٨هـ) عالم الكتب – بيروت.

١٣. الجامع لأحكام القرآن: محمد بن أحمد بن فرح الأنصاري القرطبي، أبو عبد الله، المتوفّى عام (٦٧١هـ) دار الفكر - بيروت.

١٤. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: أحمد بن يوسف بن عبد الدايم الحلبي، شهاب الدين أبو العباس،المعروف بابن السمين، المتوفّى عام (٧٥٦هـ)، تحقيق: علي محمد معوض وآخرون، دار الكتب العلمية – بيروت.

١٥. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: محمود الألوسي البغدادي، شهاب الدين، المتوفّى عام(١٢٧٠هـ) طبعة: ١٤٠٣هـ، دار الفكر – بيروت.

١٦. صحيح مسلم بشرح النووي: مسلم بن الحجاج القشيري، أبو الحسن، المتوفّى عام (٢٦١هـ) الطبعة: الأولى ١٤٣٧، مكتبة الفيصلية - مكة.

١٧. غاية النهاية في طبقات القراء: محمد بن محمد بن يوسف، أبو الخير شمس الدين ابن الجزري، المتوفّى عام(٨٣٣هـ) طبعة:١٣٥١هـ – مصر.

١٨. غرائب القرآن ورغائب الفرقان: الحسن بن محمد بن حسين النيسابوري نظام الدين، المتوفّى عام(٨٥٠هـ) على هامش جامع البيان للطبري، طبعة:١٣٩٨هـ، دار الفكر – بيروت.

١٩. فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن محمد الكناني ابن حجر العسقلاني، المتوفّى عام (٨٥٢هـ) دار المعرفة، بيروت.

٢٠. الفتح السماوي بتخريج أحاديث تفسير القاضي البيضاوي: زين الدين عبد الرؤوف المناوي، المتوفّى عام (١٠٣١هـ) دراسة وتحقيق: أحمد مجتبي السلفي، الطبعة:الأولى: ١٤٠٩هـ، دار العاصمة – الرياض.

٢١. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: محمد ابن علي بن محمد الشوكاني، المتوفّى عام(١٢٥٠هـ) طبعة:١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، دار الفكر – بيروت.

٢٢. قصص الأنبياء: إسماعيل بن عمر بن كثير، أبو الفداء، المتوفّى عام (٧٧٤هـ) الطبعة:الأولى محققة ومنقحة، ١٤٠٣هـ.

٢٣. إعراب القرآن: أحمد بن محمد بن اسماعيل النحاس، أبو جعفر،المتوفّى عام (٣٣٨هـ)، تحقيق زهير غازي زاهد، الطبعة: الثالثة (١٤٠٩هـ) - عالم الكتب.

٢٤. قصص الأنبياء: عبد الوهاب بن سيد أحمد النجار، المتوفّى عام (١٣٦٠هـ) مؤسسة الحلبي وشركاؤه – القاهرة.

٢٥. قصص القرآن: محمد أحمد جاد المولي،المتوفى عام(١٣٦٣هـ)، وآخرون، الطبعة: العاشرة، ١٣٨٩هـ، المكتبة التجارية الكبرى – مصر.

٢٦. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجـــوه التأويـــل: جارالله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، أبو القاسم،المتـــوفّى عام (٥٣٨هـ) دار المعرفة — بيروت.

٢٧. لباب التأويل في معاني التنزيل،المسمى بتفسير الخازن: علي بن محمد ابن ابراهيم البغدادي علاء الدين المعروف بالخازن، المتـــوفّى عـــام (٧٤١هـ) دار المعرفة — بيروت.

٢٨. المستدرك على الصحيحين: محمد بن محمد بـــن أحمـــد الحـــاكم النيسابوري، أبوعبدالله،المتوفّى عام (٣٧٨هـ) دار المعرفة - بيروت

٢٩. معالم التنزيل في التفسير والتأويل: الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي، أبو محمد، المتوفى عـــام (٥١٠هـ) طبعـــة: ١٤٠٥هـ، دار الفكر - بيروت.

٣٠. معاني القرآن: سعيد بن مســـعدة البلخـــي المجاشـــعي المعـــروف بالأخفش،أبو الحسن، المتوفّى عام (٢١٥هـ)،دراسة وتحقيق: عبد الأمير محمد الورد، الطبعة:الأولى ١٤٠٥هـ، عالم الكتب — بيروت.

٣١. معاني القرآن: يحيى بن زياد بن عبد الله الفراء، أبو زكريا، المتـــوفّى عام (٢٠٧هـ) تحقيق: أحمد يوسف نجاتي وآخرون - دار السرور.

٣٢. معاني القرآن وإعرابه: إبراهيم بن السري بـــن ســـهل المعـــروف بالزجاج، أبو إسحاق، المتوفّى عام (٣١١هـ) شرح وتحقيق: عبـــد الجليل شلبي، الطبعة:الأولى ١٤٠٨هـ،عالم الكتب — بيروت.

٣٣. معجم الصّحاح: إسماعيل بن حماد الجوهري،أبو نصر تـــوفى عـــام (٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٣٤. الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمد الزركلي، المتــوفّى عــام (١٣٩٦هـ) دار العلم للملايين – بيروت.

٣٥. معجم المصباح المنير: أحمد بن محمدبن على الفيومي، أبو العبــاس المتوفّى عام(٧٧٠هـ) مطبعة: مصطفى البابي الحلبي — مصر.

٣٦. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبــد البــاقي، المتوفّى عام (١٣٨٨هـ) طبعــة:١٩٨٤ م.المكتبــة الإســلامية – استانبول.

٣٧. المفردات في غريب القرآن: الحسين بن محمد المعروف بن المفضــل المعروف بالراغب الأصفهاني، أبو القاسم، المتوفّى عــام (٥٠٢هـ) تحقيق محمد سيد كيلاني، مكتبة ومطبعة:البابي الحلبي — مصر.

٣٨. مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني، المتوفّى عام (١٣٦٧هـ) دار إحياء التراث العربي – بيروت

٣٩. ميزان الاعتدال في نقد الرجال: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي شمــس الدين، أبو عبدالله،المتوفّى عام(٧٤٨هـ)، طبعة:١٣٢٥هـ – مصر.

٤٠. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: يوسف بن تغري بــردي الظاهري، أبو المحاسم،المتوفى عام (٨٧٤هـ) دار الكتب المصرية.

٤١. النّهر الماد من البحر: محمّد بن يوسف بن علي ابن حيان الأندلسي، أثير الدين أبو حيان، المتوفّى عام (٧٤٥هـ) دار الفكر – بيروت.

٤٢. إنباه الرواة على أنباه النحاة: على بن يوسف القفطي، المتــوفّى عــام (٦٤٦هـ)، طبعة: ١٣٦٩هـ، دار الكتب المصرية.

٤٣. أنوار التنزيل وأسرار التأويل: المسمّى بتفسير البيضاوي، ناصر الدين عبد

الله الشيرازي البيضاوي، أبو الخير، المتوفى عام (٦٨٥هـ) دار الفكر – بيروت.

٤٤. البحر المحيط: محمد بن يوسف بن على الشهير بأبي حيان الأندلسي، المتوفّى عام (٧٥٤هـ) دار الفكر – بيروت.

٤٥. بصائر ذوي التّمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين محمد ابن يعقوب الفيروز آبادي، المتوفى عام (٨١٧هـ)، تحقيق: محمد على النجار، المكتبة العلمية – بيروت.

٤٦. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد جلال الدين السيوطي، المتوفى عام (٩١١هـ) طبع بمصر، سنة ١٣٢٦هـ .

* * *